مظاهر الرحمة للبشر

في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم

إعداد

أ . د . عطية القوصي

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

صدق الله العظيم

محتويات البحث

الصفحة	الموضوع

مقدمة :

أختار الله تعالى محمدا صلوات الله وسلامه عليه واصطفاه نبيا ورسولا ، وجعله خاتم أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، وجهزه لذلك أحسن الجهاز وأعده خير الإعداد ليكــون نبيــه المصطفى وخير الورى . وما النبوة غلا تكليف من الله الخالق تعالى شأنه لإنسان بشر وإعداد إلهي له لكي يكون صالحا لهذا التكليف العظيم . وتكون النبوة بذلك هبة من الله لمن يصطفيه من عباده ويصنعه على عينه ليكون محصل تكليفه بتبليغ شرعه إلى الناس . وتربى العنايــة الإلهية النبي ، المبلغ عن الله تعالى ، تربية خاصة يكون خلال مراحل حياته محوطا بالعناية الربانية ومشمولا بحب الله وحمايته ورعايته . ولقد اصطفى الله آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل يعقوب ليكونوا أنبياءه . وحين اصطفى موسى عليه السلام ، قال تعالى عن هذا الاصطفاء : (وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني) ، وحين اصطفى نبينا محمد صــلى الله عليــه وسلم قال تعالى : (فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم) .

ويصطفى الله تعالى رسله من الملائكة ومن الناس ، ومن يصطفيهم الناس يميــزهم ســبحانه بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الخلق وكرم الأعراق . وتتوالى تربية الله لهم حتى تسموا أرواحهم درجة بعد أخرى ، فإذا ما بلغ المصطفى من الأربعين ، وهو مــن تمام الرجولة وكمال الشخصية والتهيؤ لقبول الأسرار الإلهية ، أنزل الله عليه الوحي والكتاب من لدنه سبحانه وتعالى .

وبنو البشر في حاجة ، على فترات من الزمن ، إلى ظهور الأنبياء بينهم لتذكيرهم بعبادة الله ووحدانيته ، ولإمدادهم بالمعارف التي تتصل بالخالق وبالخليقة وبالحياة الدنيا وبما تبعــدها ، وليضعوا لهم القواعد لضبط سلوكهم وتحقيق رقيهم ونهج طريق الصواب وتجنب طريق الشر وغواية الشيطان .

ومن رحمة الله تعالى على عباده أنه زينهم بالعقل عن سائر مخلوقاته ليفكروا ويتـدبروا بـه ويصلوا إلى معرفة الخالق والحمد له وتقديسه وشكره على عظيم نعمه . كذلك مـن رحمتـه تعالى أنه أرسل لهم الأنبياء والرسل المصطفين بين حين وآخر عبر تاريخ البشرية الطويـل ليذكروهم بعبادته إذا ما نسوا من أنفسهم أو أنساهم الشيطان . وأرسل مع كل رسول ونبي آية صدقه وبرهان نبوته ودليل صلته برب السماوات والأرض ، وتدخل المعجزات الحسية ضمن هذا الدليل حتى يصدق النبي في دعوته . وقد كانت معجزة إبراهيم الخليل عدم إحراق النـار لجسده حين أضرمها أعداؤه لإحراقه . ومعجزة موسى عصاه التي تحولت إلى حية تلقف مـا ألقاه سحرة فرعون من عصى وحبال ليسحروا بها أعين الناس ، وانشقاق البحر له ليشق لـه فيه طريق يمشي فيه وأتباعه من بني إسرائيل ويغرق فيه فرعون وجنوده . ومعجزة عيـسى المسيح غبراء الأبرص وإبصار الأعمى وإحياء الموتى . ومعجزة ذي النـون يـونس لفـظ الحوت له بعد أن ابتلعه واستقر في جوفه . وغير ذلك من المعجزات التي كانت لسائر الأنبياء والرسل .

ولقد أيد الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ببعض المعجـزات الحـسية مـن جـنس معجزات الأنبياء والرسل السابقين على عهده . فهو قد أسرى به من المسجد الحراب بمكـة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس بفلسطين ، ثم عرج به إلى السماوات العلي ثم إلى سـدرة المنتهى ورأى من آيات ربه الكبرى في رحلته السماوية هذه ما رأى . كذلك معجـزة الغـار حيث أرسل الله تعالى جنودا لحراسته لم يراها المشركون قامت بحمايته صلى الله عليه وسلم وأعمتهم عنه وعن رفيقه الصديق أبى بكر رضي الله عنه ، وغيرها من المعجزات الحـسية التي ترويها كتب السرة النبوية . لكن معجزة محمد الخالدة صلى الله عليه وسلم هي القـرآن الكريم ، كلام الله تعالى المنزل بالوحي على رسوله . والقرآن معجزة خالدة ليـست كـسائر

المعجزات ، بل هو المعجزة الكبرى ، باعتبار أنه أخر نداء نزل من السماء موجه إلى البشر جميعا على امتداد الأرض واتساع الزمان حتى قيام الساعة ينظم للناس حياتهم وسلوكهم في هذه الحياة وبعيدهم إلى الوحدانية وعبادة خالق هذا الكون وواهب الحياة على كل من فوقه ، ويذكرهم بفناء هذه الحياة الدنيا وخلود الحياة الأخرى وبيوم الحساب وبالجنة والنار . يجدون فيه الهداية حين تضل نفوسهم وتتحجر قلوبهم وتزيغ أبصارهم ، ويجدون فيه الطمأنينة وطوق النجاة حين تعز الطمأنينة ويسود القلق ويغرقون في بحور الضلال .

والقرآن معجزة ببلاغته اللفظية وفي عرضه للمعاني وفي الإخبار عن الغيب . ولقد عجز العرب ، أصحاب الرسالة المحمدية الأولى ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة ، والقرآن منزل بلغتهم على أن يأتوا بمثله وتحداهم الله تعالى أن يأتوا بسورة من مثله ولو ظاهر البعض بعضهم في ذلك ، وأن يصلوا في قولهم إلى درجة بلاغته أو أن يدانوه في فصاحته أو أن يحاكوه في أسلوبه وما كان لإنسان عاقل أن يكذب تنزيل الله تعالى قرآنه على رسوله بعد أن فرغ عقلاء النوع الإنساني من إقامة الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أنه ليس من صنع البشر وانه كلام الله المنزل المحفوظ بحدود اللغة العربية وبالوعد الإلهي بالعناية والحفظ . وقد قال الله تعالى في هذا الخصوص : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ، وقال كذلك مخاطبا نبيه : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) .

ومن دلائل النبوة : مقومات شخصية النبي المصطفى ، باعتبار هذه المقومات جزءاً لا يتجزأ من دلائل الإعجاز . فالنبي له شخصية متميزة لا تخرجه عن كونه بشر ، ولكنها ترتقي به في البشرية فيصل إلى أعلى درجة فيها بحيث لا يدانيه فيها أحد من البشر . ويختص الله تعالى أنبياءه بهذا الرقي لأنه متخذهم وسيلة الاتصال بينه سبحانه وتعالى وبين خلقه ، ولابد

أن يكون الموكل بالهداية على درجة خاصة من القدرة على الاستيعاب وتحصيل المعارف وأن يكون قدوة حسنة تستطيع شخصيته أن تجذب غليها من تريد هدايته وكسبه إلى جنب الله تعالى .

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم القدوة والمثل في الخلق والسلوك وتحصيل المعرفة والتودد إلى الناس والرفق بهم والرحمة عليهم ، وقد شهد الله تعالى له بذلك في قوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، ووصفته السيدة عائشة رضوان الله عليها بقولها : "كان خلقه القران" . فلم يتأثر عليه الصلاة والسلام ببيئة منحلة أو تسلل إليه ، عن طريق الوراثة ، خلق آثم ، بل كان نموذجاً للإنسان الكامل تعهدته العناية الإلهية وربته بخير التربية وأدبته غابة الأدب ، فقال عن نفسه صلوات الله وسلامه عليه : "أدبني ربي فأحسن تأديبي" . ونحن حسن نتبع النبي ، وهو المثال والقدوة ، نجد إخلاصه لرسالته بعد من قبيل الإعجاز في عالم الإنسان على طول التاريخ وعرضه ، وقد كان هذا اللون من الإعجاز وحده كافيا ليدلل على نبوته حين جاءته النبوة . ذلك أنه ظل قبل أن تأتيه النبوة يعيش أربعين عاما في مجتمع مغلق محدود يعرف أفراده بعضهم بعضا تمام المعرفة . ويطلعون على عورات بعضهم البعض . في مثل هذا المجتمع تظهر الأخطاء فيه جلية واضحة ويتباهى فيه شبابه بالمعاصي والآثام ويعدونها من صفات الرجولة ، بينما يقضي محمد عليه السلام شبابه وسط هذا المجتمع دون أن يجرفه تيار الخطيئة أو يؤثر فيه جانب الإغراء والغواية . فذلك مؤشر قوي على علو نفس هذا الإنسان الكامل ودليل على سمو روحه ووصلوه في مجال الإنسانية إلى مكانة يعجز أحد من أقرانه على الوصول لها . لقد أتصف محمد صلوات الله وسلامه عليه بالصادق الأمين ، وهي صفة جامعة لمكارم الأخلاق وتماثل الفضائل وتفاصيل حياة النبي المصطفى وملامح شخصيته وشمائله وسيرته ذات أهمية كبيرة في حياة المسلمين العلمية والعملية لأنهم مأمورون

بالاقتداء به في حياتهم الخاصة والعامة لقوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) وقوله تعالى : (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وحياة محمد صلى الله عليه وسلم كتاب مفتوح لكل البشر ليس بها أي ثغرة تنقصه أو أي فترة غموض داخل أبوابه .

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم عظيما في كل شيء ، وكانت مسيرة حياته مسيرة أعظم الرجال على الأرض وكانت ولا تظل سيرته أعطر السير . كان عظيما في طفولته وفي شبابه ، وكان مضرب المثل للنبي المؤمن برسالة ربه الصادق مع نفسه وقومه والمبلغ عن السماء . تحمل المخاطر واجتاز المكاره وصبر على الصعاب ، وقابل الجفاء بالحب والصدق بالود والعنف بالبسمة والقسوة بالرحمة ، وبدلا من أن يدعو على قومه الذين آذوه وأتعبوه وأخرجوه دعي لهم بالهداية والرشاد . ولقد ضرب محمد صلى الله عليه وسلم المثل وهو يقيم الدولة ويطبق شرع الله ويؤاخي بين المسلمين ويجمع شمل كلمة الموحدين ويقودهم إلى النصر والفتح المبين . كان محمد صلى الله عليه وسلم رئيس دولة وقائد أمة وقاضيها ومشرعها وخطيبها ومعلمها وعينها الساهرة التي لا تنام وقلبها الذي كان ينبض ويخفق بكل الحب والحنان ، وكان في كل ذلك عظيما غاية العظمة أمينا كل الأمانة مخلصا كل الإخلاص .

إن حياة نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه كلها حياة إنسانية سامية رسمتها وسمت في صنعها يد الخالق المبدع ، وسيرته نبع دائم يفيض بالخير والبركة والعلم والدرس والحكمة والمثل والموعظة الحسنة لا يستطيع أن يوفي حقها قلم كاتب واحد ولا بحث مؤرخ واحد . ولو اجتمع جميع المؤرخين ليسطروا سيرة رسول الله المصطفى ما استطاعوا أن يسطروها كما وقعت ، ولما استطاعوا أن يوفوا هذا العظيم حقه من الإنصاف . ذلك لأن هؤلاء الكتاب

والمؤرخين يأخذون مادتهم التاريخية عن سيرة الرسول العطرة ويعتمدون في سردهم على ما خلفته كتب السيرة والمغازي لهم ، لكنهم لم يعيشوا إلى قرب صاحب السيرة ولم يسعدوا بتكحيل عيونهم بالنظر إليه أو يشنفوا آذانهم بسماعه . حتى أولئك الذين كانوا أول من كتب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبوها بعد أكثر من قرن من لحاقه عليه السلام بالرفيق الأعلى فلم تتوصل إليهم كل التفاصيل ولم يحصلوا من معلومات عن هذه الحياة والطويلة الحافلة لسيد البشر وخير خلق الله إلا على القليل . ومع مرور الأيام وتوالي العصور دخلت على هذه السيرة الطاهرة زيادات كثيرة وإضافات لأشياء وأحداث لم تقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن بعض المبالغات التي وضعت ولصقت بها وضعها الواضعون إما من منطلق الحب لشخص محمد صلوات الله عليه ، أو بسبب عدم الفهم ، أو تعمد للإساءة للرسول الكريم ولتشويه هذه الصورة الناصعة لشخصه العظيم . وقد دس على السيرة المشرفة الكثير من الافتراءات والروايات الكاذبة ، ووقع لرسول الله منها في هذا الخصوص ما وقع لسير الأبطال والعظماء على مر التاريخ .

ولكن برجوعنا إلى القرآن الكريم وإثبات وتحليل ما ورد فيه بصدد سيرة الرسول الأمين ، وما ثبت في كتب الحديث الصحاح المعتمدة ، وما ورد على لسان المحدثين الثقات ، وباستخدام المنهج التاريخي الصحيح والإحساس الشخصي الخاضع للإعجاب والحب لنبي الرحمة استطعنا أن نكتب تلك السطور المتواضعة فغي سيرة خير خلق الله وأكرم رسله . ولقد كتب الكثير عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم في التاريخ القديم والحديث ، وقد اتفقت هذه الكتابات جميعها على روعة هذه الحياة وعظمتها ، وشهدت أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، بإنسانيته وحسن تأديبه وتربيته ورجحان عقله وثاقب فكره وقوة جلده وصبره وشدة

إيمانه برسالته وصدق دعوته استطاع أن يحقق ما أراده الله له ، وما أراده لهذه الأمانة التـــي نسبت إليه وما كانت له من رحمة للبشر أجمعين .

ولقد شهد بعض كتاب العرب المسيحيون المستشرقون ، رغم عداوة بعضهم لرسالة الإسلام ، بعظمة محمد الإنسان وصدقه في دعوته ، وثباته من أجل إبلاغها للناس كافة وعامة . ولقـــد شهد بهذه العظمة المؤرخ (كوميت) Commet ، من مؤرخي القرن الثامن عشر ، ووصـــفه بأنه "مفكر حر وضع أساس ديانة استندت إلى العقل . كذلك امتدحه الشاعر الألماني (جوتـــه) Gota ونظم فيه شعراً وصفه فيه بالذكاء والعبقرية وشبهه بالنهر العظيم الفياض الذي استقى إخوته الأنبياء جداولهم منه . ووضعه (كارليل) Carlyle ضـــمن "أعـــاظم الأبطـــال الـــذين توهجت جذوة الألوهية على أيديهم" . ورآه المستـــشرق (هيـــوبرت جـــريم) H . Grimme "مصلحا اجتماعيا أقر العدالة بين الناس" . وقال عنه (ماكسيوم رودنسون) M . Rodinson أنه "واحد من ندرة الرجال الذين قلبوا العالم رأسا على عقب" .

وفي الحقيقة ، حين أكتب عن نبينا العظيم ورسولنا الكريم يتواضع قلمي خجلاً أمام ما كتبـــه العظماء في سيرة خير البشر ، ولا أستطيع أن أقول بأنني أضفت شيئاً جديداً على هذه السيرة العطرة التي استقرت أبوابها واكتمل تقرير أحداثها ووقائعهـــا بمـــا كتبـــه الكتـــاب القـــدماء والمحدثون عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وليست هناك وثائق جديدة تم اكتشافها عن حياة هذا الغائب الحاضر العظيم تعطينا مادة تاريخية جديدة نضيفها لسيرة هـــذا المعلـــم الخالدة . ومع ذلك فمن الضروري لكل جيل من الأجيـــال أن يعـــاود الكتابـــة فـــي شـــمائل المصطفى نبي الرحمة إحياءً للسيرة النبوية العطرة وأن يحلل ويرتشف من نبعهـــا الفيـــاض ليأخذ العبرة والعظة ما دامت الحياة وحتى تقوم الساعة . ولعل أهم ما دفعني للكتابة عن سيد البشر هو الرد على حملات التشكيك المتواصلة والكراهية التي يوجهها بعض المتعصبين من

كتاب الغرب والمستشرقين في كتاباتهم ورسوماتهم بين آن وآخر دون توقف وهم (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوه ولو كره المشركون) . هؤلاء الحاقدون لم يتورعوا ، من وقت لآخر ، أن يرددوا نفس الافتراءات الباطلة والادعاءات الكاذبة وأن يروجوا الآباء المراهقة التي سبق أن رددها عتاة الكفر والشرك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم يبغون من وراء ذلك أن ينثروا الغبار على صفحة السماء البيضاء المشرقة في حياة البشرية . لكن شمس الحقيقة سرعان ما تبدد كل ما أثاروا لتعيد للصفحة بياضها ونصاعتها ، وهم في غوايتهم يبغون إما الشهرة أو المال خدمة للصليبية والصهيونية العالمية وخدمة لحزب الشيطان الذي يتربص بالغواية لهؤلاء الأشقياء من شياطين البشر .

وسبحان ربي الذي أبدع نبيه محمداً صنعاً وأدبةً ورباه علماً وخلقاً من بعد أن اصطفاه من دون سائر خلقه نبياً ورسولاً وقائداً ومعلماً ومرشداً ورحمة للعالمين وللبشر أجمعين . إنه النبي المصطفى الأمين ، المؤمن القوي بربه المبلغ لرسالته ، وهو الذي دعا للإسلام فأحسن الدعوة وأقام على دعائمه الأمة والدولة وجعل لأتباعه وأتباع رسالته المجد والعزة ، صلاة الله وسلامه عليك يا نبي الرحمة ويا شفيع الأمة ويا نبي الكرامة والحرية ، ويا خير من أشرقت شمسه على البرية وأضاء بنوره الكرة الأرضية ، وجزاك الله عن أمتك فيما هديتها إليه خير الجزاء وصلى الله وسلم عليك وعلى آلك وأصحابك ما دامت الأرض والسماء.

١- حال العالم قبل ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم

ولد الهدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشرقت شمس النور والهداية على الدنيا بعد طول ظلام ، بعد ألف وثلثمائة عام مضت على تأسيس مدينة (روما) واكثر من خمسمائة عام

بعد ميلاد السيد المسيح ، وبعد مائتي عام من تأسيس مدينة القسطنطينية على ضفاف القرن الذهبي والبسفور عام ثلثمائة وأربعة وثلاثين للميلاد بداية تاريخ إمبراطورية الروم .

وجاءت رسالة الإسلام في أعقاب رسالة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ليصحح للناس مفاهيم الدين وليعيدهم إلى عبادة الله الواحد الأحد رب العالمين الذي لم يخلق الإنس والجن إلا ليعبدوه سبحانه وتعالى وهو خالق الكون وواهب الحياة ، وليكون الإسلام آخر رسالات السماء وآخر عناق بين السماء والأرض على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، خاتم النبيين والمرسلين والمبعوث رحمة للبشر أجمعين .

وكانت المسيحية قد سادت العالم آنذاك كديانة كتابية بعد أن انتصرت في حربها بعد سنين طويلة على الوثنية ، وبعد أن اعترف بها أباطرة روما كديانة رسمية لدولتهم . وكان الصراع بين المسيحية والوثنية قد دام لأكثر من ثلاثة قرون ، لقي المسيحيون خلالها شتى ألوان العذاب وأشنع صنوف القهر والاضطهاد على يد أباطرة روما الذين اعتبروا أنفسهم آلهة وأجبروا الناس على أن يعبدوهم ويقدسوهم إلى جانب الآلهة الوثنية الأخرى التي عبدوها مع ملوكهم.

ولقد أخذ أباطرة روما فكرة تقديس الملوك من ملوك الفرس الساسانيين وفراعين مصر . فبالرغم من العداء الشديد الذي كان قائماً بين الإمبراطورية الرومانية في الغرب وملوك الفرس الساسانيين في الشرق إلا أن الأباطرة الرومان كانوا معجبين بالطريقة التي نظر بها الفرس إلى ملوكهم وهي نظرة الإجلال والرهبة والتقديس لهم . كذلك تأثروا بنظرة الشعب المصري إلى ملوكه الفراعنة ورفعهم إلى مرتبة الآلهة ودرجة العبادة والتقديس . وقد أخذوا عنهم ذلك بعد فتحهم مصر وضمها إلى إمبراطوريتهم على يد الإمبراطور (أغسطس) الذي

اصبح في نظر المصريين فرعونا إلها له نفس حقوق الفرعون المصري ، وبناءً علــى ذلــك اصبح كل إمبراطور روماني رباً يعبد بعد موته إذا رضي عنه مجلس شيوخهم (السناتو) .

ولقد جاء انتصار المسيحية على الوثنية وإقبال شعب الإمبراطورية عليها منــذ القــرن الأول الميلادي بسبب زهد الناس في الديانات الوثنية وعجز هذه الديانات عن إشــباع المتطلبــات الروحية عندهم بعد التغيرات الكبرى التي حدثت نتيجة لتوحيد الرومان للعالم ونشر السلام فيه مما أدى إلى الازدهار الاقتصادي وطغيان الجانب المادي على الروحانيات . ولما تاق الناس المعودة إلى الروحانيات وكانوا قد سئموا الوثنية تماما ، أخذوا يستجيبون لتعاليم المسيحية التي رأوا فيها ديانة سامية روحانية وليدة جاءتهم من فلسطين لتروي ظمأهم الروحي وتحلق بهــم في عالم السماء اللانهائي . ولقد أقبل على هذه الديانة فئات معينة من الناس شملت الطبقــات الفقيرة المطحونة وطبقة الرقيق المستعبدة وشعوب البلاد التي استعبدها الروم واضــطهدوها وحرموها من حق المواطنة الرومانية وكان إتباعهم لها سعياً وراء وعدها لهم بالتعويض عن ظلم الدنيا بسعادة الروح في الآخرة وأملاً في نعيم الفردوس الأخروي.

واستمرت المسيحية في الانتشار فقي ربوع الإمبراطورية خلال القرن الثاني الميلادي ، وقــد ساعد على هذا الانتشار عوامل عدة كان أهمها نجاح المسيحية في ملأ الفراغ الروحي عنــد الناس بعد أن فشلت الوثنية والفلسفات الإغريقية في ملئه . كذلك تيار الحماس الــشديد الــذي سيطر على المسيحيين الأول وتفشي شهوة الاستشهاد بينهم لكي يلحقوا بمملكة المسيح متحدين بذلك أوامر الحكومة وإجراءاتها التعسفية ضدهم ، إضافة إلى دقة التنظيمــات التــي أقامهــا المسيحيون ونظمت سلوكهم الكهنوتي .

ومنذ عام ٣٥٠ ميلادية أجمع أساقفة الكنائس المسيحية على الأخذ بكتاب مقدس يجمع أقــوال المسيح وعظاته ومسيرة حياته ، أطلقوا عليه اسم (الإنجيل) أو (العهد الجديد) تمييزاً له عــن

(العهد القديم) الذي أطلقه اليهود على (توراتهم) الموضوعة . وقد تضمن هذا الكتــاب ســبعاً وعشرين موضوعاً هي : الأناجيل الأربعة (إنجيل مرقص ولوقا ومتــى ويوحنــا) وأعمــال الرسل ، وإحدى وعشرين رسالة بعث بها حواريو المسيح للتبشير برسالته ، وســفر رؤيــا القديس يوحنا . وقد التزم المسيحيون ، منذ القرن الرابع الميلادي ، بالعهد الجديد التزام اليهود بالعهد القديم . ولقد ضم المسيحيون العهد الجديد إلى العهد القديم في كتاب واحد عرف بكتاب التوراة "Biblia" .

ولقد اعتبرت الإمبراطورية الرومانية المسيحية ، في أول الأمر ، حركة منشقة عن اليهودية ، واعتبرت المسيحيين طائفة من اليهود يسري عليهم ما يسري على بني جلدتهم من اليهــود . وكان الرومان يعترفون بوجود الديانة اليهودية كديانة قائمة ومسموح بممارســتها مقابــل أن يدفع اليهود جزية سنوية على راس كل بالغ منهم . وقد وقف الرمان موقــف الحيــاد ، أول الأمر ، أثناء دعوة السيد المسيح عليه السلام ولم يعترضوا سبيله واعتبروا دعوتــه خلافــاً مذهبيا بينه وبين جماعة من بني إسرائيل . لكن اليهود أنفسهم لم يرتاحوا لدعوى المسيح لأنه نادى بالمساواة بين كل الناس ولم يجعل الأفضلية "لــشعب الله المختــار" فتــآمروا ضــده ، وحرضوا الوالي الروماني في فلسطين على القبض عليه وقتله ، فاضطر الوالي إلى فعل ذلك وهو كاره . وتؤكد الرواية المسيحية قتل المسيح وصلبه بينما يؤكد القــرآن الكــريم حفظــه ورفعه .

ويعد غياب المسيح عن الساحة أعلن أتباعه الانفصال التام عن المعبــد اليهــودي وتأســيس ديانتهم التي نسبوها للمسيح وسموا أنفسهم (بالمسيحيين) Christiani ، بعد مجمع لهم عقدوه سنة ٤٨ ميلادية في بيت لحم بفلسطين في عهد الإمبراطور الروماني (كلاوديوس) . غير أن الرومان لم يعترفوا بهذا الانفصال الجديد للمسيحيين وظلوا يعاملونهم على أنهم طائفــة مــن

اليهود يلتزمون تجاههم بمثل ما يلتزم به اليهود . وتحت إصرار المسيحيين على الخروج عن التبعية اليهودية والانفصال عنهم اضطر حكام الرومان إلى تحقيق رغبتهم التزاماً منهم بمبدأ احترام حرية العقائد . لكن خروج المسيحيين عن اليهودية جعل المسيحيين يحرمون من الامتياز الممنوح لليهود من قبل الدولة الرومانية والمتضمن إعفائهم من عبادة الإمبراطور ، وهو امتياز منح لليهود فقط دون سائر أصحاب العقائد والديانات الأخرى المنتشرة بين ربوع الإمبراطور الروماني إلى جانب عبادتهم إلههم ، لكن المسيحيين رفضوا ذلك رفضا قاطعا ، وأعلنوا ذلك في تحد سافر للإمبراطور الروماني دون مبالاة منهم لما سيدفعونه من ثمن نتيجة هذا التحدي . ومضى المسيحيون في تحديهم قدما وبالتالي اعتبرهم الأباطرة الرومان خارجين منشقين ومتآمرين على الدولة وخائنين لها . ولما كان الموت والتعذيب جزاء الخائن الخارج المنشق كان ذلك جزاء المسيحيين . فوقع بذلك الاضطهاد الشديد على المسيحيين ، وقد تحملوه ببسالة وصبروا بذلك أروع الأمثلة في التضحية والاستشهاد . ورغم وقوع الاضطهاد على المسيحيين ، لكن للحقيقة والتاريخ أن هذا الاضطهاد لم يكن يمارس خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين من جانب السلطات الرسمية في عصر الأباطرة الصالحين ، لكن الفتك بهم كان يتم على يد الغوغاء الوثنيين بتحريض من اليهود .

وكانت المسيحية قد ازدهرت واشتد عودها في ظلال عصر تسامح الأباطرة الصالحين ، كذلك اتضحت معالمها في عهدهم بعد أن استعارت المسيحية الكثير من تعاليم الديانات الأخرى السابقة لها واستوعبت الفلسفات الإغريقية ، وبعد أن تركت اللغة الآرامية التي كان يتكلم بها المسيح وأهل المشرق العربي ، واتخذت اللغة الإغريقية لها لساناً وكانت لغة ثقافة العالم القديم آنذاك وترجم الإنجيل إليها ، وبذلك وجدت قبولا عند شعوب البحر المتوسط وبين أوساط

المثقفين . وبذلك انتشرت المسيحية انتشاراً واسعا خلال القرن الثالث الميلادي وأصبح لا ينافسها على مستوى العالم إلا الديانة المجوسية الفارسية .

وبانتهاء عهد الأباطرة الصالحين انتهى عصر التسامح الكبير مع المسيحيين لتأتي مرحلة محاربة المسيحية باستخدام القوة والعنف وذلك حين حكم الإمبراطورية الرومانية أباطرة عسكريون من منطقة (ايلليريا) في الفترة ما بين سنوات ٢٣٥ و ٢٨٥ م ، بداية بعهد حكم الإمبراطور (ديقيوس) ونهاية بعهد حكم الإمبراطور (دقلديانوس) . وقد وقع أشد البطش بالمسيحيين في عهد دقلديانوس ، الذي عرف عهده عند النصاري باسم (عصر الشهداء) لكثرة من قتل فيه على يديه من المسيحيين ، حتى أن كنيسة الإسكندرية المصرية جعلت تقويمها يبدأ بعام جلوس دقلديانوس على العرش عام ٢٨٤ م . ولم يتنفس المسيحيون الصعداء إلا بداية من عهد الإمبراطور الروماني (قنسطنطين) ، الذي اعترف بالديانة المسيحية ديانة قائمة شأنها في ذلك شأن باقي الديانات الوثنية في الإمبراطورية ، وذلك حين أصدر مرسومه الشهير المعروف (بمرسوم ميلان) سنة ٣١٣ ميلادية .

تطور الأمر بعد ذلك بالمسيحية حين صارت ديانة الدولة الرومانية الوحيدة الرسمية ، حين دخل أباطرة الروم ، بعد قنسطنطين ، في هذا الدين واختفى دونها من الديانات الوثنية الأخرى ، وصار أولئك الأباطرة الرومان حماة للمسيحية ودعاة لكنيستها . وعلى أثر ذلك حدث الانتشار الكبير في العالم لهذه الديانة بعد أن حملت البعثات التبشيرية دعوى المسيحية إلى أبعد البلدان : من غابات الشمال الأوربي وسهوله الباردة إلى شواطئ البحر المتوسط الدافئة وارض الشرق الغنية الواسعة الثراء .

وما كادت المسيحية تتسيد الديانات في العالم وتنتشر في أنحائه ، إلا وانقسمت على نفسها ، وتقسمت إلى طوائف ومذاهب مختلفة متنافرة ، وكانت الاختلافات بين هذه الطوائف

والمذاهب تمس صميم العقدية ذاتها وتختلف في طبيعة الإله وطبيعـة المـسيح . وصـارت المشكلة المسيحية وانشقاقها على نفسها من أهم المشاكل التي كان علـى أبـاطرة الـروم أن يواجهوا وأن يعالجوا آثارها . وكان على قنسطنطين ، أول هؤلاء الأباطرة ، أن يجابه مشكلة الانقسام الديني الذي وقع بين المسيحيين غداة ظهور المذهب "الأريوسي" سنة ٣١٨ م .

وكان "اريوس" الذي نسب إليه المذهب الأريوسي ، أحد أساقفة كنيسة الإسكندرية ، قد أثـار صراعاً عقائدياً بداخل الإمبراطورية وأحدث بلبلة فكرية كبيرة لما أثاره من جدل حول طبيعة السيد المسيح وحول العلاقة ، في اعتقاد معتنقي المسيحية ، بين الأبن المسيح والأب الإله في دائرة (الثالوث المقدس) . فقد استنكر آريوس أن يتساوى المسيح الإبن البشر ، في زعمـه ، مع الأب الإله ، وقال بأنه من المؤكد أن يكون الإبن دون الأب الإله في المكانـة والمرتبـة والجوهر والقدسية والأزلية .

ولم يتقبل كل المسيحيين آراء آريوس الجديدة والجريئة حول طبيعة العلاقة بين الأب والإبن (اللاهوت) و (الناسوت) ، بل إن بعضهم رأى في آراء آريوس انتقاصاً لمكانة المسيح ، وأن هذا الانتقاص قد يقضي على المسيحية تماماً ، لأن أساس اعتناق المسيحيين لهذه الديانة ، قائم في نظرهم على الإعجاب بشخص المسيح ذاته وبمسيرته وبمسيرة آلامه .

وقد تزعم المعارضين لمذهب اريوس رجل أخر يدعي "أثناسيوس" ، وهـو شـماس كنيـسة الإسكندرية ، قام بالرد على آريوس وفند آرائه ، ونادى بضرورة التمسك بالثالوث المقـدس كرب واحد ، وبضرورة مساواة الإبن مع الأب في كل شيء واعتبارهما (أقنوماً) واحدا . وقد ارتاح المعجبون بشخص المسيح وبسيرته لآراء اثناسيوس وصاروا أتباعاً له وبخاصة أولئك المسيحيون البسطاء القاطنون للمناطق الشرقية مـن الإمبراطوريـة . وتبعـاً لـذلك انقـسم المسيحيون آنذاك إلى فرقتين : أريوسية واثناسيوسية .

وكان لزاماً على الإمبراطور قنسطنطين أن يتدخل في الأمر ، وقد رأى في هذا الانقسام انقساماً على وحدة الدولة ، وأراد تسوية هذا الخلاف بين الفرقتين والمذهبين وتوحيد الرأي المسيحي . وعلى ذلك أمر بعقد (مجمع ديني) يضم كبار رجال الدين المسيحيين من سائر أنحاء الإمبراطورية يترأسه هو للنظر في هذه المشكلة الخطيرة . لكن هذا المجمع له ينجح في حل الخلاف بين أصحاب المذهبيين ، وبسبب هذا الفشل عقدت مجامع دينية أخرى على فترات متوالية عرفت (بالمجامع المسكونية) . من هذه المجامع مجمع عقد في مدينة (نيقيه) سنة ٣١٥ م ، ومجمع آخر عقد في مدينة (صور) سنة ٣٣٤ م ، ومجمع ثالث عقد في (القسطنطينية) سنة ٣٨١ م . وقد أعلن في المجمع الأخير ، وبصفة نهائية ، عدم شرعية الأريوسية وفرض عقوبات مشددة على معتنقيها في جميع أنحاء الإمبراطورية . كما قرر اعتماد الأثناسيوسية المذهب الحقيقي (الأرثوذكسي) للدولة وقد تبنته واعتبرته الكنيسة المذهب (الملكاني) الرسمي الذي يدين به الملك الإمبراطور ورعيته .

وبذلك وجد شرخ فاصل بين كنائس الشرق وكنائس الغرب ، مما أدى إلى انقسام الكنيسة المسيحية إلى شقين : الشق الشرقي وتمثله كنيسة القسطنطينية ويرأسها بطريركها ، وهي التي تحولت فيما بعد إلى اسم (كنيسة الروم الأرثوذكس) والشطر الثاني وتمثله كنيسة القديس بطرس في روما ويرأسها البابا ، وهي التي تحولت ، فيما بعد ، إلى الكنيسة الكاثوليكية . وبين الاثنين بدأت كنيسة الإسكندرية في الاستقلال بشخصيتها وآرائها ، وهي التي تحولت ، فيما بعد ، إلى الكنيسة القبطية .

وقد تمخض عن الخلاف بين الأريوسية والأثناسيوسية عن ظهور مذهب مسيحي آخر ، في آخر القرن الرابع الميلادي ، كان له الانتشار في سوريا انطلاقا من مدينة (إنطاكية) ، وقد عرف هذا المذهب بالمذهب (النسطوري) ، نسبة إلى الداعي إليه وهو (نسطوريوس) ،

بطريرك القسطنطينية الانطاكي المولد والسوري الموطن . وقد نادى نسطوريوس في مذهبه الجديد بالقول بأن الطبيعتين الإلهية والبشرية لم تتحدا اتحاداً كاملاً في المسيح وأن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة . وقد رفض نسطوريوس الاعتراف بالسيدة مريم كوالدة للإله وقال بأنها والدة للمسيح البشر . وقد لقى هذا المذهب النسطوري إقبالاً كبيراً في كل بلاد الشام وشمال العراق .

ولم يقتصر الأمر في انشقاق المسيحية على ظهور المذهب النسطوري ، بل ظهر في منتصف القرن الخامس للميلاد مذهب أخر ، وهو مذهب (الطبيعة الواحدة) أو المذهب ٠المونوفيزيتي) ، الذي نادي به في سنة ٤٤٤ للميلاد كل من (ديوسقوريوس) ، بطريرك الإسكندرية و (يوتيخا) المندوب عنه في القسطنطينية ، وقد قالا : "بأن طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية قد تحولتا عند التجسد إلى طبيعة واحدة مع تغلب الطبيعة الإلهية على الطبيعة البشرية وذوبانها فيها ، وبذلك أصبحت للمسيح طبيعة واحدة وهي الطبيعة الإلهية" .

ولقد رفضت كل من كنيستي القسطنطينية وروما هذه الآراء ولم تعترفا بهذا المذهب ولا بالمذهب النسطوري ، ولقي المذهبان معارضة كبيرة منهما على الرغم من مناصرة الإمبراطور (مارقيان) للمذهب المونوفيزيتي . وقد اضطر هذا الإمبراطور ، تحت ضغط من رجال الكنيسة ، أن يعقد سنة ٤٥١ م مجمعا مسكونيا في مدينة (خلقدونية) . وانعقد هذا المجمع بالفعل ، وتوصل رجال الدين الذين حضروه إلى تحديد العقدية الخاصة بطبيعتي المسيح ، وقالوا بوجود الطبيعتين كل منهما غير قابلة للتجزئة ومستقلة عن الأخرى ، وأنكروا في هذا المجمع ، آراء النساطرة والمونوفيزتيين .

ورغم قرارا هذا المجمع فإن المذهب المونوفيزيتي انتشر في مصر والشام ، وعرف معتنقوه هناك باسم (اليعاقبة) ، نسبة لاتباعهم القسيس جاكوب براديوس (يعقوب البراذعي) أسقف

انطاكية في الشام الذي عمل على نشر هذا المذهب في هذه البلاد وصار مذهب كنيسة الإسكندرية القبطية . وهكذا عاشت الإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية في فوضى دينية وخلافات مذهبية حول صميم العقدية المسيحية . وصارت كل فرقة من هذه الفرق تدعي بأنها الأصح وتكفر الفرق المخالفة لها في الرأي والاعتقاد . وظل المسيحيون في المشرق والمغرب في حيرة بين هذه المذاهب دون الوصول إلى رأي نهائي ومعرفة المذهب الحق منها . ولم يكن الصراع الديني وحده هو الذي يمزق إمبراطورية الرومان ، بل قامت الإمبراطورية الرومانية الغربية آنذاك من الضربات الموجعة التي وجهتها إليها قبائل الجرمان المتبربرة التي هاجمت أراضيها من شمال أوربا ، واقتطعت أجزاء كبيرة منها ليقيموا لأنفسهم عليها دولاً مستقلة في الجزء الغبي من أوربا ز وقد كان هذا الجزء من الإمبراطورية الرومانية ضعيفا ضعفا ظاهرا في الداخل ولم يكن لديه قادة قادرون على القيام بشئونه والدفاع عنه ز كما لم يكن له مركز قوي يتجمع حوله ، لذلك كان لقمة سائغة وسقط في سهولة في يد قبائل الجرمان . فغزى اللمبارديون منهم إيطاليا ، وغزى القوط الشرقيون أسبانيا ، والكتلان والأنجلو سكسون بريطانيا ز وباتت ، بعد هذا الغزو الجرماني ، إمبراطورية الروم الشرقية هي القوة الرومانية الكبرى وأكبر دول الغرب في أوائل العصور الوسطى .

كان هذا حال الغرب وقت ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم ، أما شرق العالم آنذاك فكانت تتحكم فيه دولة فارس الساسانية القوية والغنية ، الإمبراطورية الثانية العظمى في عالم ذلك الوقت . وكانت هذه الإمبراطورية تحكم من عاصمتها طيسفون (المدائن) البلاد الممتدة ما بين الفرات والهند . وكانت هذه الدولة تمتلك جيشاً قوياً يعتمد في المقام الأول ، على سلاح الفرسان القوي التسليح ، والذي تأتي من خلفه فرق المدرعات الثقيلة المتمثلة في الأعداد الهائلة من الفيلة المدرعة التي تثير بزئيرها الرعب في قلوب الأعداء حين يشتد وطيس القتال

. وتأتي في مؤخرة الجيش فرق المشاة المسلحة تسليحاً خفيفاً والمدربة على الاجتياز والاقتحام . وقد استطاع الفرس ، بهذا الجيش ، إحراز انتصارات باهرة وخوض معارك حاسـمة فـي بلاد التركستان والهند والقوقاز في القرن السادس الميلادي وعلـى جيـوش الإمبراطوريـة الرومانية .

وكان الفرس يعتنقون ديانة وثنية ثنيوية هي الديانة (الزرادشتية) ، المعروفة (بالمجوسية) . ويؤمن بأصحاب هذه الديانة بوجود إلهين ، أحدهما للخير ويرمز له بالنور ، ويعرف عندهم باسم (أهورامزدا) ، ويعرف الآخر بغله الشر ويعرف باسم (أهرمن) ويرمز له بالظلمة . وتنتسب هذه الديانة إلى مؤسسها (زرادشت) ، ولها كتاب يعرف (بالافستا) ، وهو مكتوب باللغة البارثية الفارسية القديمة . وأتباع هذا الدين يوقدون النار في معابدهم ، ظنا منهم أنهـا تساعد وتقوى إله الخير في حربه ضد إله الشر ، وسرعان ما عبد المجوس النار لذاتها .

ولقد تفرع عن المجوسية مذهبان وثنيان هما : المذهب المانوي والمذهب المزدكي ، وتنتسب المانوية إلى مؤسسها (ماني) الذي ظهر في القرن الثالث للمـيلاد ، وقـام بمـزج تعـاليم المجوسية مع البوذية والمسيحية وخرج بتعاليم مذهبه الذي أخذ من المجوسية اعتقاد الثنيوية واستباحة الزواج من البنات والأخوات وأخذ من البوذية عقيدة تناسخ الأرواح ، ومن المسيحية الزهد والرهبنة .

وتنتسب المزدكية إلى داع ظهر في بلاد فارس في أواخر القرن الخامس الميلادي ويـدعى (مزدك) ، وكان ثنيويا يقدس النار ، وقد مضى يدعو الناس إلـى الانغمـاس فـي الملـذات والشهوات حتى الأذقان . كذلك دعى إلى شيوعية المال والنساء وأن تكونا شركة للناس جميعا . وقد اعتنق هذا المذهب أعداد كبيرة من الفرس خاصة عامتهم والفقراء منهم .

وهكذا كان الفرس يعتنقون الديانات الوثنية ويسجدون لغير الله ويتخبطـون فـي اعتقـاداتهم وبعمهون في ضلالاتهم ، فضلا عن تأليههم لملوكهم وشاهاتهم والإيمان بـالحلول والتناسـخ والقول بأن روح الله حلت في ملوكهم من بنى ساسان . وكان البيت الساساني هو الذي أقـام الإمبراطورية الكبرى لفارس وجعلها تناطح إمبراطورية الروم ، وقد كان لزاما أن تـصطدم أكبر قوتين بعضهما ببعض لفرض سيادة إحداهما على العالم وتلك سنة التـاريخ منـذ اقـدم العصور .

وفي عام ٥٣١ للميلاد ارتقى عرش فارس الإمبراطور (كسرى أنوشروان) ، الروح الخالدة ، وكان من أشهر وأعظم ملوك الفرس ، وكان له إيوان وعرش كبير محلي بـأغلى الـدرر وأندر الأحجار الكريمة ، وكان يضرب بأيوان المثل في العظمة والبهاء . وقد قـام كـسرى بإصلاح أحوال بلاده الاقتصادية والعسكرية ، وصارت بذلك أقوى مما كانت عليه في عهـد والده . ولما أكمل كسرى استعداد جيشه وتجهيزه وتسليحه قام بغزو سوريا التي كانت تخضع لحكم دولة الروم آنذاك ، واستولى على مدينة (أنطاكية) الهامة وقام بتدميرها نكاية في أهلها الذين دافعوا عن مدينتهم وتصدوا بشراسة لقواته الغازية .

وعندما اعتلى (هرقل) عرش الروم ، كان الخطر الفارسي يهدد كل ممتلكات الإمبراطورية ، فقد وسع الفرس رقعة فتوحاتهم على حساب الروم واستولوا على كل سوريا وأرمينيا ومدوا بأطماعهم إلى البحر المتوسط وطرقت قواتهم أبواب القسطنطينية عاصمة الروم . وقد ساعد الفرس في هذا الغزو وهذا الانتشار تلك الاضطرابات التي سادت ولايـات الـروم الـشرقية بسبب الخلاف الديني بين أهاليها واضطهاد الدولة للعناصر المونوفيزيتية المعارضة للمذهب الملكاني . ولقد ساعد أهالي هذه البلاد الفرس في الاستيلاء على بلادهم وفتحوا أبواب مـدنهم لهم ودلوهم على نقاط الضعف في التسليح الرومي بسبب هذا الاضـطهاد وبـسبب سياسـة

التسامح الديني التي انتهجها الفرس في البلاد الرومية المفتوحة ، وكان الفــرس قــد نهجــوا سياسة التسامح مع المسيحيين النساطرة الذين اعتنقوا هذا المذهب في بلادهم . ولقــد نجــح الفرس في الاستيلاء على (بيت المقدس) سنة ٦١٤ للميلاد ، وأباحوا هذه المدينة المقدســة لجنودهم ثلاثة أيام وقتلوا عددا كبيرا من أهلها وأسروا عدد أكبر منهم ، وكان مــن بيــنهم (الأب زكريا) بطريرك المدينة . كذلك استولوا على (صليب الصلبوت) ، أهم آثار المسيحية الدينية ، وهو الصليب الذي يدعى المسيحيون أن المسيح قد صــلب عليــه ، ونقلــوه إلــى عاصمتهم المدائن . كذلك دمر الفرس كنيسة (القيامة) التي كان قــد شــيدتها الإمبراطــور قنسطنطين الكبير ، وهي من أقدس كنائس المسيحية هناك .

وبعد أن غزى الفرس سوريا ، قاموا بغزو مصر ، واستولوا على عاصمتها (الإســكندرية) آنذاك سنة ٦١٩ للميلاد ، ثم استولوا بعد ذلك على بقية بلاد مصر في الدلتا والصعيد بسهولة .

وكان لزاما على الروم ، بعد أن تخلصوا من مشاكلهم الداخلية ، أن يتصدوا لفتوحات الفرس لممتلكاتهم ، فتقدمت قواتهم لرد الضربة لهم وبذلك دخلت الإمبراطوريتان الكبيرتان في حرب ضروس دامت بينهما لسنوات طويلة ، ولم تنته بنصر لأي منهما ، بل أدت في النهاية إلــى ضعفهما معا وتضاعف مشاكلهما .

ولتقد واجه الإمبراطور هرقل الخطر الفارسي ووضع حدا لهجمات الفرس على بلاده ونجــح في قلب هزائم الروم أمام الفرس إلى انتصارات عليهم حتى أنه استرد معظم الأراضي التــي كانوا قد استولوا عليها ، وزاد على ذلك بأن قام بمهاجمتهم في عقر دارهم . فتقدم بجيشه سنة ٦٢٧ للميلاد ووصل إلى مدينة (نينوي) القريبة من الموصل ، وهناك دخــل مــع الجــيش الفارسي في معركة كبيرة نجح هرقل في إيقاع هزيمة كبرى فيها بالفرس . وبعد هذه المعركة

عزل كسري عن ملك فارس وحل مكانه على العرش إبنه (شيرويه) الذي قام بقتل والـــده . ولم يكن أمام شيرويه من خيار إلا عقد الصلح مع هرقل سنة ٦٢٨ للميلاد بعد أن تأكد مـــن عدم قدرة قواته على مجابهة قوات الروم . وبمقتضى هذا الصلح المذل استرد الروم كل مـــا كان قد استولى عليه الفرس من بلادهم ومستعمراتهم بما في ذلك بـــلاد ســـوريا ومـــصر . واستعاد الروم من الفرس أيضا صليبهم المقدس المعروف بصليب الصلبوت .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى نصر الروم هذا في سورة الروم في قوله تعالى : (آلم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الـــرحيم . وعـــد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .) .

وكان هذا الصلح بين الفرس والروم نهاية مطاف الحروب الطويلة بين القـــوتين العظيمتـــين آنذاك ، وقد أضعفت هذه الحروب كلا الطـــرفين وأنهكـــت قواهمـــا ، ولـــم تكـــن أي مـــن الإمبراطوريتين يعلم ما كانت تخفيه الأيام لكليهما وما كانت عناية الله تعـــده داخـــل جزيـــرة العرب . لقد كانت البشرية جمعاء في انتظار بزوغ فجر جديد بعد أن ساد العالم الفساد وغطى أجواءه الظلام وران على قلوب العباد الكفر والضلال والشر والإلحاد . وتطلع الكون جميعـــه وران ببصره صوب جزيرة العرب ، أرض الرسالة ، حيث أشرقت هنالك شـــمس الإســـلام بمولد نبي الرحمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حال جزيرة العرب قبل ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم

ظهرت الدعوة المحمدية في شبه جزيرة العرب ، واختار الله تعالى هذه الأرض كـــي تكـــون مهبط الوحي ومنبعث رسالة الإسلام . وشبه الجزيرة أرض واسعة تـــساوي فـــي مـــساحتها

تقريبا ثلث مساحة قارة أوربا بأكملها ، وتغلب الصحراء على معظم أراضيها بسبب نقص سقوط الأمطار عليها . وهنالك مناطق كثيرة داخلها تغطيها الجبال التي يرتفع بعضها لأكثر من ستمائة قدم عن مستوى سطح البحر وتمتد طوليا إلى عدة أميال .

وتنقسم شبه الجزيرة من حيث طبيعتها الجغرافية إلى خمسة أقسام هي : الحجاز ، وتهامة ، ونجد ، والعروض ، واليمن ، وحضرموت . ويقع الحجاز شمال اليمن وشرقي تهامة وغربي نجد ، وهو الإقليم الممتد من خليج العقبة إلى عسير . وقد سمي هذا الإقليم حجازا لأنه يحجز بين نجد وتهامة ، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو سبعمائة ميل وعرضه مائة وسبعون ميلا ومساحته ست وتسعون ألف ميل مربع . ويتكون الحجاز من عدة أودية تتخللها سلسلة جبال (السراة) . وأشهر مدنه : مكة والمدينة (يثرب) والطائف وجدة وينبع وبوك ، التي تقع على حافة صحراء (النقود) .

أما تهامة ، فهي الأرض الواقعة بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، من ينبع إلى نجران ، وتسمى أيضا (الغور) لانخفاض أرضها ، وقد سميت بتهامة لشدة حرها وركود ريحها ، ومن أهم مدنها عسر وأبها .

أما تجد فهو أوسع أقسام شبه الجزيرة ، وقد سمي نجدا لارتفاع أرضه ، وهو إقليم يمتد من بادية الشام شمالا إلى حدود اليمن جنوبا ، ومن بلاد الحجاز غربا إلى البحرين شرقا . ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠٠ ميل وعرضه من الشرق إلى الغرب نحو ٢٢٠ ميل . وإلى الجنوب من نجد تقع صحراء الربع الحالي (الأحقاف) ، وكانت ديارا لقوم عاد ، وتعال مساحة الربع الخالي مساحة دولة فرنسا الحالية . وفي شمال نجد تقع صحراء (النقود) أو (بادية السماوة) وتغطي مساحة أربعين ألف ميل مربع ، وجنوبها تقع جبال (شمر) .

وأشهر مدن نجد (الرياض) ، عاصمة المملكة السعودية الحالية ، ومدينـــة حائـــل ومدينـــة القصيم .

وإقليم العروض ، وهو اليمامة ، سكني قبيلة (بني ربيعة) ، وقد سمى عروضا لاعتراضـــه بين اليمن ونجد والعراق ، وقد سكنه قديما بنو طسم وجديس من العرب البائدة .

أما اليمن وحضرموت فيقعان في جنوب وجنوب شرقي شبه الجزيرة العربية ، وقد تميـــزت أراضيها بالخصب لسقوط الأمطار علها في فصل الصيف ش، وقام أهلها بالزراعة ، وشهدت أراضيها حضارات قديمة ، هي : حضارة معين وسبأ وحمير على التوالي .

وقد فرضت طبيعة الأرض في شبه الجزيرة نمط حياة العرب فيها ، فسادت فيهـــا البـــداوة ، وغلبت عليها حرفة الرعي بسبب غلبة الصحراوات على أرض هذه البلاد وقد رعى أهـــالي هذه البلاد الإبل وعرفوها منذ خمسمائة عام قبل ميلاد المسيح ، وهي حيوانات تتناسب طبيعة تكوينها مع حياة الصحراء القاسية ، ومن ثم أصبحت الإبل هي عماد ثروتهم ومصدر طعامهم ووسيلة تنقلهم الوحيدة عبر الصحراء ، ولذلك عرفت بسفينة الصحراء . والجمل هو الحيوان الوحيد دون سائر الحيوانات الذي يستطيع أن يقطع المسافات الشاسعة عبر دروب الصحراء دون كلل أو ملل ، وهو يستطيع ، خلل رحلته عبر الصحراء ، أن يحمل على ظهره أكثر من أربعة قناطير من الأحمال وأن يقطع ستين ميلا سيرا متواصلا في اليوم ، وهو قادر على أن يسافر عشرين يوما متصلة دون ماء في ظروف حرارة قاسية قد تصل إلى درجة ١٢٠ درجة فهرنهيت .

والعرب الذين سكنوا أرض شبه الجزيرة المسماة باسمهم ، هم أمة من الأمم السامية استوطنت هذه البلاد قبل الميلاد بآلاف السنين ، ولمي ستطيع أحد من لعلماء أن يحدد التوقيت الـــدقيق لهجرتهم إليها . وهم من نسل سام بن نوح عليه السلام ، كما ورد في التوراة . ولغتهم فـــرع

من الأرومة السامية مثل العبرية والحبشية والفينيقية والآشورية . وقد قيل أ تسمية هذا الشعب بالعرب جاءت نسبة إلى جد العرب العاربة الأكبر (يعرب بن قطحان) من نسل سام بن نوح عليه السلام . وقد قسم المؤرخون هؤلاء العرب إلى أقسام ثلاثة : عرب بائدة ، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة .

والعرب البائدة هم العرب الذين بادوا من قديم ومحيت آثارهم واندثرت أخبارهم وهم : قـــوم عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق والمعينيون وجرهم الأول . والعرب العاربة ، ويعرفون باليمنية ، والسبئية ، والقحطانية ، وعرب الجدوب ، وكانوا في الأصل يسكنون العــراق ثــم هاجروا إلى اليمن واستقروا فيه ، وكانوا معاصرين لإخوانهم من العرب البائدة ، ثم تفرقــوا من اليمن على أثر نزول (سيل العرم) وانهيار سد (مأرب) سنة ٥٢٥ ميلادية وتوزعــت قبائلهم في شبه الجزيرة وخارجها . ومن أشهر هذه القبائل : حمير وكهلان ، ومن أشهر قبائل حمير : قضاعة ومن بطون كهلان : الأزد ، وطئ ، وبجيله ، ولخم ، وكنده . ومن بطــون الأزد : أزدعمان والأوس والخزرج الذين سكنوا يثرب ، بعد هجرتهم من الــيمن ومــنهم : خزاعة ، والغساسنة ملوك الشام .

أما العرب المستعربة ، ويقال لهم : الإسماعيلية ، والعدنانية ،والمعدية ، والنزارية ، والقيسية ، وعرب الشمال ، وعرب الجاز . سموا مستعربة لأنهم لم يكونوا عربــا خلــصا ، ولكــنهم جاءوا نتيجة تزاوج العرب الخلص مع غيرهم من سكان البلاد التي نزحوا إليها . وقد نــشأوا في مكة وارتبط قيامهم بمجئ سيدنا إسماعيل مع أبيه سيدنا غبراهيم من العراق ، واســتقرار إسماعيل وأمه (هاجر) بمكة بين قبيلة جرهم على أثر تفجر بئر زمزم من تحت قدمي سيدنا إسماعيل ، وزواج إسماعيل من (رعلة) إبنة سيدهم مــضاض الجرهمــي ، وقــد انجــب إسماعيل إلى عشر ولدا ، هم أباء العرب المستعربة .

عاش العرب في جزيرتهم عيشة قبلية بدوية ، وكانت القبيلة هي دعامة الهيكل الاجتماعي في الجزيرة العربية . وقد تشكلت القبيلة من عشائر وبطون وأفخاذ جمعنها فيما بينهـا روابـط القربى . وكانت العلاقات بين هذه القبائل تتغير من حين لآخر بين السلم والحـرب ، بـسبب الصراع على الكلا وموارد الماء ، ولدافع الثأر ، ورغبة بعض القبائل فرض سيادتها علـى القبائل الأخرى واغتصاب ما بيدها . وقد كثر النزاع بين القبائل العربية بـسبب ذلـك فـي الجاهلية . وعرفت الأيام التي شهدت هذه الحروب عندهم باسم (أيام العرب) . ومن أشـهر هذه الأيام : حرب البسوس ، وداحس والغبراء ، وأيام الفجار .

ولم يكن يحكم العرب قانون مكتوب ، ولم تكن لديهم دولة تفرض قوة القانون عليهم ، وكانت العادات والأعراف تحكمانهم . وكان أساس المجتمع القبلي قائما على المساواة بين جميع أفراد القبيلة في الحقوق والواجبات . وكان رجال القبيلة يختارون زعيما لهم منهم يستمد قوته مـن قوة الجماعة وعليه المحافظة على وحدة الجماعة . ويتم اختيار هذا الزعيم لصفات مميزة به مثل الشجاعة والكرم أو الحكمة والكياسة مع كبر السن . ولم يكن شيخ القبيلة مستبدأ برأيه بل كان رأيه من رأي جماعته .

ولقد كونت بعض هذه القبائل ثروات لها بسبب الإغارات على القبائل الأخـرى ، أو بـسبب التجارة ،وكان في كل قبيلة الأغنياء والفقراء من أبنائها . وقد شرع الأغنياء في شراء الرقيق من الجنسين . وكان الرق يقع على الشخص إما لأسره في الحرب وعدم مقدرته علـى فـداه نفسه ، وإما غرما لدين لم يستطع سداده . وقد قام بعض ممن يتملكون هؤلاء العبيـد بعـتقهم على أن يصيروا موالي لهم أو لقبائلهم ، فيقال للواحد منهم : "مولى فلان) أو " مولي قبيلـة كذا " .

ولقد أحرز الحكماء والشعراء مكانة هامة في مجتمع الجزيرة العربية ، وكان الشعراء لسان حال قبائلهم ، وكانت المباريات تعقد بينهم ي الأسواق فيتعرف الناس على أخبار القبائل . وكان كل شاعر يحاول أن يبرز مفاخر قبيلته ويمتدح رجالها ويهجو أعداءها ، ويشيع ذلك بين القبائل كما تفعل الصحافة اليوم ووسائل الإعلام المختلفة .

ولم يكن البدو يميلون بطبيعتهم إلى التدين ، وكانوا يعتقدون بأن الأرض مسكونة بالأرواح الشريرة والج الخفي الذي يظهر ، حسب اعتقادهم ، في بعض الأحيان على هيئة الحيوان . وكان بعضهم يعبد الكواكب والنجوم ، والبعض الأخر يعبد الأصنام والأوثان ، وكان لكل قبيلة ثقيف بالطائف ، وكانت صخرة مربعة على شكل زهرة أقيم عليها بناء ، وكانت في موضع بناء مئذنة مسجد الطائف اليسرى اليوم . أما العزى فهي غلة القوة ، وهي شجيرات في وادي نخلة عن يمين الذاهب من مكة إلى العراق . كذل عبدوا (منات) ، وهي إلهة القدرة والموت والحياة عندهم ، عبدها الأوس والخزرج بالمدينة ، وكان لها نصب على ساحل البحر الأحمر ببلدة (نديد) بين مكة والمدينة .

ولقد جلب (عمرو بن لحي) ، سيد خزاعة ، في أوائل القرن السادس الميلادي ، معه من الشام صنما على صورة إنسان مصنوع من العقيق الأحمر أسماء (هبل) وأسكنه جوف الكعبة وجعله كبير الآلهة ، ولما كسرت بدء اليمنى صنعت له قريش يدا من ذهب . كذلك عبد عرب الحجاز صنمين هما (إساف ونائله) ، وكانا على موضع من زمزم ، وكانوا ينحرون عندهما . وقيل أنهما كانا رجلا وامرأة من جرهم تواقعا عند الكعبة فمسخهما الله حجرين ليكونا عظة وعبرة عند الكعبة ، ولما طال مكثهما وعرب العرب عبادة الأصنام عبدا معها ، وقد كان حول الكعبة ثلثمائة وستين صنما .

وتواجدت (الأنصاب) عند العرب ، وهي صخور ذات صور معينة زعموا أن أصلها سماوي وقاموا بتقديسها وعبادتها . وقدس العرب الكعبة ووضعوا الأصنام حولها وذبحوا عندها الذبائح وقدموا القرابين ، واتخذوا مع الكعبة بيوتا يعظمونها كتعظيم الكعبة ، وكان لها سدنة وحجاب يقومون بأمرها ، ويهدي لها وكان يطاف بها . وقد عرف العرب فضل الكعبة ، وعرفوا أنها بيت إبراهيم الخلي ومسجده ، وأبقوا فيهم من دين إبراهيم : من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف بعرفة ومزدلفة وإهداء البدن .

وعرفت شبه جزيرة العرب اليهودية والمجوسية والمسيحية والصابئة ، فانتشرت اليهودية في اليمن ووادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب ، كانت المجوسية في بلاد البحرين وعلى المناطق المجاورة لبلاد فارس ، وانتشرت المسيحية بين بني تغلب وغسان وقضاعة وفي إقليم نجران ، وكان الصابئة في شمال العراق .

كذلك عرف العرب (الحنيفيين) الموحدين من بقايا أتباع ملة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهي الأصل عندهم في تقديس مكة والكعبة والحج إليهما . وقد دعى أتباع هذه الدعوة الناس إلى نبذ عبادة الأصنام وعبادة الله الواحد الأحد الذي دعى لعبادته سيدنا إبراهيم ، واشتهر من هؤلاء رجال تميزوا بالعقل والحكمة بين قومهم أمثال : (أمة بن أبي الصلت) ، و (ورقة بن نوفل) ابن عم السيدة خديجة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و (زيد بن عمرو بن نفيل) ، و (عثمان بن الحويرث) ، و (عبد الله بن جحش) ، و (قس بن ساعدة الأيادي) .

وكان لكل قبيلة طقوسها الدينية ، وقد قدست قريش بعض الحيوانات وحرمت ذبحها وأطلقت عليها أسماء أعطتها صفة القداسة : كالبحيرة والسائبة والوصيلة والخام . و (البحيرة) هي الناقة التي يمنع درها وتترك هبة للآلهة فلا يحلبها أحد من الناس ، وكانت تشق أذنها ويخلي

سبيلها ولا تركب ولا يجز صوفها . و (السائبة) هي الناقة التي يسيبونها للآلهة لا يحمل علها ولا يركب ظهرها ، ولا يشرب لبنها ولا يجز صوفها ، وهي الناقة التي تأتي بعد ولادة عشر غناث متتابعين ليس بينهم ذكر . (الوصيلة) هي الناقة البكر التي تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد ذلك بأنثى وليس بينهما ذكر ، فكانوا يسيبونها لوصلها بأنثى مثلها . أما (الحام) فهو فحل الإبل إذ أنتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر ، فإذ ضرب هذا العدد ودعوه لبيوت عباداتهم وأعفوه من الحمل والعمل ، فلا يركب ولا يجز ويره ويخلى في إبله بضرب فيها ولا ينتفع به . وقد أنزل الله تعالى إبطال ذلك جميعه بقوله تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) .

وكان السحر عموما شائعا بين العرب ، كذلك الفأل والطيرة والخوف من الحسد والعمل على الوقاية منه بالتعاويذ والأحجبة .

ولقد نظم عرب شبه الجزيرة تجارتهم ووصلوها لتجارة المرور بين الشرق والغرب العالمية ، وكونوا الثروات الطائلة من وراء هذه التجارة ، وازدهرت مدنهم التي كانت على طريق (الحرير) ، طريق التجارة العالمية آنذاك ، وازدهرت مدنهم التي كانت على هذا الطريق . وكانت (مكة) من أهم هذه المدن التي ازدهرت لوقوعها في منتصف الطريق بين جنوب شبه الجزيرة وبلاد الشام التي كانت خاضعة آنذاك لدولة الروم . وكذلك ازدهرت مدينة (الطائف) الحجازية الواقعة جنوبي مكة ، وكانت مزرعة لمكة تزودها بما تحتاجه من خضر وفاكهة وبما تحتاجه القوافل التجارية وقوافل الحجيج الوافدة إليها في كل عام لأداء فريضة الحج . كذلك ازدهرت (يثرب) بما كانت تنتجه من حاصلات زراعية ساهمت بها في التجارة العالية . وأخذ المجتمع الرأسمالي في الظهور في الجزيرة العربية بسبب المكاسب الهائلة التي حققها المشتغلون في التجارة العالمية . وأخذ المجتمع الرأسمالي في الظهور في

الجزيرة العربية بسبب المكاسب الهائلة التي حققها المشتغلون في التجارة العالمية . وقامت الأسواق التجارية الكبرى في شبه الجزيرة مثل سوق (عكاظ) ، الذي كان يجذب إليه رجال القبائل من شتى الأنحاء فيشتعل خلاله النشاط التجاري والنشاط الثقافي والإعلامي .

ومن الطبيعي ، نتيجة لهذا التغير الاقتصادي ، كان التغير الاجتماعي والأخلاق في حياة أهل شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، غذ تطلع الناس إلى الغني والثروة على حساب المثل والقيم والأخلاق . وأزداد ، تبعا لذلك ، الحقد والجشع بين الناس ، وضعفت أواصر القربى بينهم وصارت القرابة للمصلحة والمنفعة المتبادلة . وازداد الأغنياء غني وازداد الفقراء فقرا في مجتمع طغت عليه المادة وساد فيه الفساد . ونسى الناس ، في غمرة ذلك ، تعاليم ملة إبراهيم عليه السلام ، وقاموا بعبادة الأوثان والأصنام . في نفس الوقت كان مجتمع شبه الجزيرة العربية يعيش دون دولة موحدة ودون قيادة تسوسه ، وكان الحكم فيها قبليا تسيد فيه الأغنياء وكبار التجار ، وتقاتلت القبائل وتصارعت فيما بينها وفقدت البلاد الأمن والأمان والسلام الاجتماعي . فكان الوضع في شبه الجزيرة سيئا للغاية في كل المجالات ، وكان الناس في حالة جدب روحي . وكانت الشواهد جميعها تنذر بريح التغير ، وكانت الدلائل تنذر بقرب إشراق شمس وسط دياجير الظلام التي سادت العالم آنذاك . وكان أن أشرق هذا النور من داخل هذه الجزيرة على العالم بين مكة يوم أن ولد نبي الرحمة للبشر جميعها محمد صلى الله عليه وسلم .

المجتمع المكي قبيل مولد محمد صلى الله عليه وسلم :

تأسست مدينة مكة (بكة) حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي ، كمدينة تجارية هامة تتحكم في طريق القوافل العالمي بين الشرق والغرب . وكان العماليق (الهكسوس) أول من

سكنها على أثر هجرتهم إليها من بلاد العراق ، ثم خلفتهم عليها قبيلة (جرهم الثانية) اليمنية ، بعد أن هاجرت من اليمن وتغلبت عليهم . وفي عهد سيادة جرهم على مكة كانت هجرة نبي الله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام من العراق ، وكان نزوله مع زوجته (سارة) بمصر ، وكانت مصر آنذاك تحت حكم العماليق (الهكسوس) .

ونزح سيدنا إبراهيم من مصر مع زوجته المصرية (هاجر) ، التي أهداها له ملك العماليق ، وهي أميرة من أميرات البيت الحاكم ، إلى الحجاز ومعهما طفلهما الرضيع سيدنا إسماعيل . وكان ذلك تنفيذا لأمر الله تعالى بتركهما في صحراء جرداء بواد غير ذي زرع عند موضع بيته الحرام . وقد دعى إبراهيم ربه لأسرته وهو يستودعها عنده بقوله : (ربنا إني أسكنت من ذريني بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

واستجاب الله تعالى لدعوة نبيه فأنبع الماء من تحت قدمي الطفل الصغير العطش وأمه تهرع ذهابا وإيابا بين جبلي الصفا والمروة بحثا عن الماء للطفل الذي كاد العطش أن يقتله . وجاءت قبيلة جرهم في أثر نبع ماء زمزم لتسكن مع هاجر وطفلها ، وهوت أفئدة الناس إليهم ورزقهم الله من طيب ثماره وقامت الحياة وازدهرت في تلك البقعة القاحلة من صحراء الحجاز .

وحين وصل إسماعيل إلى سن الشباب تزوج من إبنة رئيس جرهم بعد أن أحرز الرياسة عليهم . ولما مات إسماعيل عادت الإمارة والرياسة في مكة ثانية لجرهم ، ولم ينازع أبناء إسماعيل أخولهم عليها ، وظلت الرئاسة في يد جرهم حوالي قرنين من الزمان إلى عهد آخر رؤسائهم (مضاض بن عمرو بن الحارث) . وفي عهد رئاسة مضاض حدث أن نضب ماء زمزم ، ونجح عرب قبيلة خزاعة ، الذين هاجروا من اليمن ، بعد وقوع سيل العرم فيها

وانهيار سد مأرب ، في الاستيلاء على مكة بقيادة زعيمهم (حارثة) ، ابن عمرو بن لحي ، الملقب بخزاعة . وكان مضاض قد حذر قومه عاقبة الفساد والترف اللذين أنغمسوا فيهما نتيجة الثروة الثروة التي حلت عليهم بسب التجارة ، ولكنهم لم يسمعوا له . فلما أيقن كبير جرهم زوال أمر دولتهم في مكة عمد إلى زمزم فاعمق حفرها ودفن بها ما كان مدخرا للكعبة مما أهدى إليها من مال وذهب وأهال عليها الرمال ، على أمل عودة جرهم للسيادة على مكة ثانية يوما من الأيام فيعيد الكشف عنها وتستفيد وتتقوى جرهم بها . وخرج مع مضاض بنو إسماعيل من مكة ، ووليت خزاعة أمر مكة والبيت . وقد تولى رئاستهم يومئذ (عمرو بن لحي الخزاعي) الذي ينسب إليه إدخال عبادة الأصنام إلى بلاد العرب بعد أن استوردها من الشام . واستمرت خزاعة على رياسة مكة حوالي ثلاثة قرون حتى تقوت عليها قبيلة قريش وانتزعت الرياسة عليها منذ عام ٤٤٠ ميلادية بقيادة (قصي إبن كلاب) ، الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قام قصي بإجلاء خزاعة من مكة إلى وادي فاطمة بالحجاز ، وقام بإقطاعها رباعا بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم بمكة التي اصبحوا عليها . وكانت تسكن أطراف مكة و (قريش البطاح) ، وهي التي سكنت بطحاء مكة ، أسفل الوادي حول بئر زمزم ، مع من حالفها من القبائل والأحابيش .

وصارت إلى (قصي) الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة . والحجاية هي سدانة الكعبة ، أي تولى مفاتيحها وخدمتها والإشراف عليها والتكفل بحراستها . أما السقاية فكانت تعني توفير الماء ونبيذ التمر لحجيج بيت الله في موسم الحج . أما الرفادة ، فكانت مبلغا من المال تخرجه قريش في كل موسم من أموالها ليصنع منه طعاما يقدم للحجيج فيأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد . وكان قصي أول من فرض ذلك على قريش وقال لهم : " يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف

بالكرامة فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم " . فكانوا يخرجون لــذلك كل عام من أموالهم خرجا يدفعونها إلى قصي فيصنع منه طعاما للناس أيام بقائهم في (مني) ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام . أما اللواء ، فقد عقــد لهــم قصي راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا للعدو . وابتنـــى قــصي كذلك دارا أطلق عليها (دار الندوة) يجتمع فيها كبراء أهل مكة من رجال (المــلأ) تحــت إمرته ليتشاوروا في أمرهم ولحل مشاكلهم وبخاصة وقت وقوع حرب مع عدو .

وكان لقصي ثلاثة أبناء هم : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزي ، وكان عبد الدار أكبرهم وكان أحب أبنائه إلى قلبه وأقربهم إليه ، وكان عبد مناف أشرفهم . ولما طعن قصي في السن وضعف بدنه ولم يعد قادرا على تولي أمور مكة أوصى لعبد الدار بما كان له مــن وظــائف وأن يحل مكانه فيها ليعوضه بذلك ما نقصه من شرف أخيه عبد مناف . ولما توفى قصي عام ٤٨٠ م قام عبد الدار من بعده بأمر مكة ولم ينازعه في ذلك أخوه عبد مناف ، احتراما لرغبة والده . واستمر الحال كذلك إلى أن مات عبد الدار وعبد مناف فتنازع أبناء العم على الرئاسة وانقسموا في ذلك إلى فريقين وتفرق بذلك أمر قريش . وصمم بنو عبد منـــاف : (هاشـــم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل) أن يأخذوا الرئاسة من بني عمــومتهم وأخرجــوا جفنـــة ملأوها طيبا ووضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها وعاقدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم وعرفوا آنذاك (بالمطيبين) . وقام بنو عبد الدار بإخراج جفنة ملأوها دما ووضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها وعرفوا (بالأحلاف) و (بلعقة الدم) . وكاد القتال أن يقع بــين الطــرفين لولا تداعى الناس للصلح فاصطلحوا على أن تقسم الاختصاصات بينهما على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تبقى الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت . ورضي

الفريقان بهذا وتحاجز الناس عن الحرب ، وظل الأمر كذلك حتى مجئ الإسلام . وحين فتح الرسول مكة طلب العباس بن عبد المطلب ، عم الرسول الحجابة لنفسه . فأراد النبي أني عطيه مفتاح الكعبة فنزل قومه تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، فرد النبي المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن عبد العزي من بني عبد الدار ، ولا تزال الحجابة باقية فيهم إلى اليوم كما أرادها الله تعالى .

وكان (هاشم بن عبد مناف) ، كبير بني عبد مناف ، فتولى أمرهم ولزم السقاية والرفادة ، حتى وفاته سنة ٤٦٤ م . وقد سن هاشم لقريش رحلتي الشتاء والصيف باتجاه مكة وخروج تجارها في رحلة شتوية إلى اليمن والحبشة وأخرى صيفية إلى الشام في كل عام . وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرحلتين في سورة قريش بقوله تعالى : (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) .

وقد حاول (أمية بن عبد شمس) ، ابن أخي هاشم ، أن ينافس عمه على زعامة مكة وأن يتولى أمر السقاية والرفادة ولكنه لم يستطع ، وحكم عليه القداح أن ينحر خمسين ناقة عند الكعبة وأن يخرج عن مكة إلى الشام عشر سنوات ، فامتثل لأمر القداح وخرج ، وكان ذلك بداية العداء بين بني أمية وبني هاشم وبداية التثبت لبني أمية في بلاد الشام .

توفى هاشم بأرض الشام في رحلة من رحلات الصيف التجارية غليها فخلفه أخوه (المطلب) في مناصبه ، وكانت قريش تسمى المطلب (بالفيض) لسماحته وفضله . وكان هاشم قد تزوج في يثرب من سيدة من الخزرج ذات شرف ونسب تدعى (سلمى بنت عمرو الخزرجية) من بني النجار ، وأنجب منها إبنا أسمته أمه (شيبة) ، وقد ترك هاشم ابنه مع أمه بيثرب قبل أن يلقى منيته . ولما مات هاشم ذهب المطلب أخوه إلى يثرب ليحضر ابن أخيه إلى مكة ، فلما جاء به أطلق الناس عليه اسم (عبد المطلب) ، وغلب هذا الاسم عليه حتى نسى الناس

(شيبة) أسمه الأصلي . وقام عبد المطلب في مناصب أبيه هاشم بعد وفاة عمه المطلب ، (بردمان) من أرض اليمن سنة ٤٩٥ م ، فصارت له السقاية والرفادة .

ولقد وقع حب عبد المطلب في قلب قومه وعظم خطره عندهم وخاصة تصدى لحملة (أبرهة الحبشي) على مكة ومحاولته هدم الكعبة وفشله في ذلك . ولم يكن لعبد المطلب من أولاد إلا ولد واحد أسمه (الحارث) ، وقد لقي عبد المطلب ، وبسبب ذلك ، مشقة كبرى في أمر سقاية الحاج ، ذلك لأن الماء اللازم للسقاية كان يؤتي به من آبار بعيدة حول مكة وكانت توضع في أحواض إلى جوار الكعبة . وكان بئر زمزم قد جف منذ قرون ، وجاء الهاتف في المنام لعبد المطلب وهو نائم في (حجر الكعبة) وألح عليه أن يعيد حفر البئر . وتفاءل عبد المطلب خبيرا وتمنى أن يعيد حفر البئر الماء إليها فتخف عنه مشقة جلب الماء من أماكن بعيدة متفرقة هو وإبنه . وكانت المفاجأة لعبد المطلب أن عثر على الذهب والأموال التي كان مضاض بن عمرو الجرهمي قد دفنها قبل خروجه وقومه من مكة . ونازعت قريش عبد المطلب فيما حصل عليها وأرادت مشاركته فيه لكن القداح التي احتكموا إليها حكمت لصالح عبد المطلب فتقوى عبد المطلب بتلك الثروة على أداء ما عليه من واجب السقاية والرفادة .

وكان عبد المطلب قد نذر ، حين لقي من مشاق إعادة حفر بئر زمزم ، أنه عن أنجب عشر بنين أن ينحر أحدهم عند الكعبة قربانا للآلهة . ومع الأيام تحقق أمل عبد المطلب وصار له عشرة ذكور وكان عليه الوفاء بنذره ، فطلب الأب من كل أبن من أبنائه أن يكتب اسمه على قدح وأخذ الأقداح وذهب بها إلى صاحب القداح عند الصنم (هبل) في جوف الكعبة ، فجاءت القداح على (عبد الله) أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه ، وأمه (فاطمة بنت عمرو) من بني مخزوم . وصمم عبد المطلب ، والألم يعتصر قلبه ، على أن يفي بنذره فاعترضت قريش كلها على ذلك ، وكانت تحب عبد الله الشام الجميل الوسيم البهي الطلعة الدمس الأخلاق

. وطلبت قريش من عبد المطلب ا، يراجع القداح على أن يدفع دية من الإبل ترضـــي عنهـــا الآلهة . فضربت القداح من جديد على الإبل وعلى عبد الله ، وكانت في كل مرة تزاد الإبـــل وتخرج القداح على عبد الله حتى وصل عدد الإبل إلى مائة فخرجت القداح على الإبل ثـــلاث مرات . عندئذ فرح عبد المطلب وفرحت قريش كلها لفداء عبد الله ، وقدم الأب الإبل ونحرها عند الكعبة وتركت هنالك أياما لا يصد عنها إنسان ولا حيوان .

وكان عبد الله يشارك والده في رحلاته التجارية ، وفي سن الرابعة والعشرين وأثناء أحد هذه الرحلات تزوج عبد الله ، وهو في طريقه إلى الشام ، في يثرب ، من (آمنة بنـــت وهـــب) وأبوها سيد (بني زهرة) من بني التجار ، وتزوج الأب من (هالة بنت وهيب) من نفـــس القبيلة . وبعد اشهر قليلة من زواجه توفى عبد الله وهو في سن الخامسة والعـــشرين ، وهـــو عائد من الشام في تجارة له ، وقد مر أثناء رجوعه على أخواله من بني النجار فـــي يثـــرب وهناك توفى وترك (آمنة) بعد أن حملت منه في أكرم خلق الله في شهرين من حملها . ولم يترك عبد الله لزوجته إلا القليل ، ترك لها جارية هي أم أيمن (بركة) ، وخمسة من الإبل ، وعددا قليلا من الغنم . وبقيت آمنة مع أهلها في يثرب تنتظر أن تضع وليدها ثم عادت إلـــى مكة وهي لا تعلم أنها ستضع خير خلق الله وأكرم رسله محمدا صلى الله عليه وسلم خير من أنجبته النساء ، وصاحب الرسالة الخاتمة ، ونبي الرحمة للبشر أجمعين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم . إنما خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح مـــن لـــدن آدم لـــم يصبني من سفاح أهل الجاهلية شيء لم أخرج إلا من طهرة " .

٢- التعريف بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وبحياته من المولد حتى نزول الوحي

هو محمد الطيب المبارك بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ، وإلى فهر جماع قريش ، وما كان فوق فهر فليس يقال له قرشي ، بل يقال له كناني ، وهو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خريمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم هي : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب .

ولد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٢٠ أبريل ٥٧١ م) في عام الفيل ، بالدار التي في زقاق (المدكك) بشعب بني هاشم ن الطرف الشرقي لمكة . وكانت قابلته (الشفاء) ، أم (عبد الرحمن بن عوف) ، وكانت حاضنته (أم أيمن) جارية أبيه ، وأول من أرضعته (ثويبة) مولاة عمه عبد العزي بن عبد المطلب (أبو لهب) بلبن إبن لها يقال له (مسروح) أياما قبل أن تقدم حليمة السعدية ، وأرضعته مع عمه (حمزة بن عبد المطلب) و (أبا سلمة بن عبد الأسد) ، فكانا أخويه من الرضاعة .

وقد فرح الجد عبد المطلب بمولد محمد صلى الله عليه وسلم حين بشر به ودخل به الكعبة ، وسماه محمدا . وفي اليوم السابع من مولده ختنه وأولم وليمة بتلك المناسبة ودعا إليها أعيان قريش . وقد أ؛ب الجد حفيده محمدا حبا شديدا ، وكان يوضع لعبد المطلب فراشا في ظل الكعبة كان يجلس عليه محمدا وهو طفل صغير دون سائر أبنائه وأحفاده .

ولم يعرف الكثير عن طفولة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن من القليل الذي ورد عن هذه الطفولة وتواتر عن حياته صلى الله عليه وسلم نقول أن الرسول نشأ في قبيلة تعد من أشرف

قبائل العرب وفي بيت من أفضل بيوت قريش وأمنعها . نشأ يتيما فلم يعرف الأب ولم يحظ طويلا بحنان الأم . وكعادة القرشيين ، كان لمحمد من يرضعه وهو طفل ، وقد اعتادت قريش على أن ترسل أطفالها إلى البادية يرضعونهم هناك حتى يكتسبوا هنالك الصحة والعافية بفعل هواء الصحراء الصحي والنقي ، وليتعرفوا أيضا على اللغة العربية السليمة الفصحى من عرب البادية وتتعود ألسنتهم ، منذ أن تبدأ النطق ، على النطق العربي السليم .

ولقد ألتمس لمحمد صلى الله عليه وسلم المراضع من البادية فأرضعته إمرأة من بني سعد بن بكر يقال لها (حليمة السعدية) بنت أبي ذؤبب من قبيلة بني سعد ، وهي فرع من قبيلة (هوازن) الكبرى . وكانت حليمة قد جاءت إلى مكة ضمن عشرة نسوة من بني سعد يلتمسن الأطفال الأغنياء ليرضعنهن ويتكسبن من وراء رضاعتهن . فأخذت كل واحدة منهن طفلا إلا حليمة التي لم يبق لها من الأطفال إلا الطفل اليتيم الأب محمد صلى الله عليه وسلم . وقد وقفت أم الرسول آمنة بنت وهب به منكسرة مع جاريتها . فقالت حليمة لزوجها (أبى ذؤبب) ، الحارث بن عبد العزي : " لقد غادرت النسوة ولم يبق سوى هذا الطفل اليتيم ولا أريد العودة دون طفل " . فقال لها زوجها : " خذي هذا الطفل اليتيم عسى الله أن ينفعنا ببركته " . فأخذته حليمة ، عائدة به إلى ديارها لترضعه وليعيش مع أبنائها من الحارث : عبد الله وأنيسة وخزامة ، التي عرفت (بالشيماء) والتي تولت حضانة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمها طيلة مكوثة عندهم ورضاعته مدة سنتين حتى فطم .

وخلال السنتين الأوليتين التي عاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني سعد ، تنسم هواء البادية الصافي ونطق لسانه أول ما نطق باللسان العربي السليم الذي تميز به أهل البادية ، ونمى جسده وهو ابن سنتين حتى بدى ابن أربع سنين . وقد قامت حليمة وأسرتها بزيارة لمكة بعد ذلك ليعيدوا محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمه بعد الفطام وانتهاء مدة الرضاع ، وهم

جزعون لفراقه بعد ما رأوا من فيض بركاته . لكن وباء كان بمكة آنذاك فخافت أمه عليه من ذلك الوباء فطلبت من حليمة العودة به إلى مضارب بني سعد فسرت هي وأسرتها بذلك أشد السرور وسعدوا بصحبة هذا الطفل المبارك الذي تأكدوا بأنه سيكون له شأن عظيم .

وبالفعل عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مضارب بني سعد ، وظل عند حليمة حتى بلغ سن الرابعة ، وصار يغدو ويروح مع أخيه وأخته في البهم داخل الحي ترعاه عناية الله ، ومصداقا لقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى) . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتباهى بعروبته وبلسانه السليم النطق بالعربية ، وورد عنه قوله صلوات الله وسلامه عليه : " أنا أعربكم ، أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد بن بكر " .

وروى عن ابن إسحاق عن نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا له : " يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ؟ ، قال : نعم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوء ثلجا ، ثم أخذاني فشقا بطني ، واستخرجا قلبي فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال بمئة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنة بألف من أمته ، فوزنني بهم فوزنته ، فقال : دعه عنك ، فوالله لو وزنته بأمته جميعها لوزنها " .

وجاء أخوه يصيح بأمه : " أدركي أخي القرشي " فخرجت أمه تعدو ومعها أبوه ، فيجدان رسول الله صلى الله عليه وسلم منتقع اللون ، فنزلت به إلى آمنة بنت وهب وأخبرتها خبره ، وقالت : " إنا لا نرده إلا على جدع آنافنا " ، ثم رجعت به أيضا ، فكان عندها سنة أو نحوها

لا تدعه يذهب مكانا بعيدا ، ثم رأت سحابة تظله إذا وقف وقفت وإذا سار سارت ، فأفزعهـــا ذلك أيضا من أمره ، فقدمت به أمه لترده وهو ابن خمس نين ، فلزم رســول الله صـــلى الله عليه وسلم أمه .

وهو في سن السادسة من عمره ماتت أمه وهي لم تتجاوز العشرين ربيعا ، وقــد ماتـــت الأم بمنطقة (الأبواء) بين مكة والمدينة (شمال شرقي رابغ على مسافة ٤٠ كم منهـــا) ، فـــي طريق عودتها بعد زيارتها معه لقومها ، أخواله من بني النجار ، ماتت من أنثر حمي أصابتها . وكانت الأم قد اصطحبت معها ، في رحلتها إلى المدينة ، أم أيمن ، حاضنة الرسول وهمـــا على بعيرين . فنزلت به في دار (النابغة) فأقامت به عندهم شهرا . فكان رسول الله صـــلى الله عليه وسلم يذكر أمورا كانت في مقامه ذلك وقال ابن اسحق : " لما نظر إلى أطـــم بنـــي عدى بن النجار عرفه ، وقال : كنت ألاعب أنيسة هناك على هذه الأطم " ، وهي جارية من الأنصار . " وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائرا كان يقع على " ، ونظرا إلى الدار فقال : " ههنا نزلت بي أمي ، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب ، وأحسنت العوم في بئر بني عدى بن النجار " . وكان قوم من يهود المدينة يختلفون ينظرون إليه ، فقالت أم أيمن : " فسمعت أحدهم يقول : هو نبي هذه الأمة ، وهذه دار هجرته " ،فوعيت أم أيمن ذلك كله من كلامه ، ثم رعت به أمه إلى مكة ، فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهـــب ، فقبـــرت هناك .

رجعت أم أيمن برسول الله صلى الله عليه وسلم على البعيرين اللذين قدما عليهما إلى مكة ، وظلت تحضنه بعد وفاة أمه . وشاءت إرادة الله تعالى أن يذوق محمد رســول الله صـــلى الله عليه وسلم مرارة اليتم وهو طفل صغير وأن يحرم بذلك من حنان الأبوين ، لكن الله تعـــالى عوضه عن ذلك بأن فتح له أشد القلوب أيصادا وألان له أشد الأفئدة تحجرا وآواه خير المأوى

فكفله جده عبد المطلب ، وكان قد طعن في السن آنذاك وبلغ الثمانين من العمر . وتوفى عبد المطلب ، وكان قد طعن في السن آنذاك وبلغ الثمانين من العمر . وتوفى عبد المطلب وهو في الثانية والثمانين ، وذلك بعد عام الفيل بثماني سنين ، ودفن (بالحجون) ، مدفن هل مكة . فكفله عمه أبو طالب (عبد مناف) . وكان عبد المطلب ، فيما يزعم القرشيون ، يوصي به عمه أبا طالب ، وذلك لأن عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا طالب أخوان شقيقان لأب وأم ، أمهما (فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن مخزوم) . وكانت رئاسة بني هاشم قد آلت إلى أبي طالب بعد وفاة عبد المطلب لكونه أكبر إخوته .وكان اسم أبي طالب (عبد مناف) وكان له من الولد (طالب) ، وكان أكبر أولاده فكني به وصار يعرف بأبي طالب بدلا من عبد مناف . وكان أبو طالب قليل المال كثير العيال ، وقد لحظ محمد صلى الله عليه وسلم ذلك ، وهو في سن الصبا فطلب من عمه أن يرعى له غنمه ، فرعاها ، فشأنه في ذلك شأن كل إخوته الأنبياء ، وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : " ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم " .

وكان أبو طالب يحب محمدا صلى الله عليه وسلم حبا شديدا لا يحبه لولده ، وكان لا ينام غلا إلى جنبه ويخرج فيخرج معه . وكان يخصه بالطعام ، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعا أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فيقول له أبو طالب : " إنك لمبارك " . وكان أبو طالب لا يسافر سفرا إلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معه فيه .

وخرج أبو طالب إلى الشام في رحلة الإيلاف الصيفية ، وخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة ، وهو في سن الثانية عشرة . وكانت رحلة الإيلاف تنتهي عند بلدة (بصرى) من بلاد إقليم حوران بالشام ، وهي تقع على أول الطريق التجاري القادم من

الحجاز عند ملتقى خمسة طرق تجارية هامة . وكانت مدينة بصرى هـــي المقــر الرئيـــسي للأسقف اليعقوبي (المونوفيزيتي) ، الذي كان يفرض سيادته الدينية ومذهبة على دولة عرب (الغساسنة) هناك . وقد بنيت في بصرى كنيسة قديمة كانت بها بعض صوامع للرهبـــان . ويروى المؤرخ محمد بن جرير الطبري في كتابه " تاريخ الرسل والملوك " قصة لقاء محمد صلى الله عليه وسلم براهب نصراني كان يسكن إحدى هذه الصوامع يدعى (بحيرى الراهب) ، وقد تصادف أن نزل محمد صلى الله عليه وسلم وعمه عند صومعة بحيري هذا ، فصنع لهما طعاما بعد أن خرج إليهما ، وكان من قبل لا يخرج من صومعته ولا يلتفت لأحــد مــن أشياخ قريش . ودار حوار بين محمد وبحيري عرف منه أن بمحمد صلى الله عليــه وســلم الأوصاف التي وردت فيما عنده من كتب دينية عن نبي آخر الزمان . وطلب بحيري من أبي طالب أن يحافظ على أبن أخيه وأن يعود به سريعا إلى بلده حتى لا يقع في يد اليهود الــذين يعتقدون بأن نبي آخر الزمان سوف يكون من بين رجالات بني إسرائيل . وقال له : " ارجع بابن أخيك إلى بلده وأحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم " ، فأسرع أبو طالب عائدا إلى مكة .

وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ، ويحوطه مــن أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد به من كرامته ، وهو على دين قومه ، حتى بلــغ أن كـــان محمد صلى الله عليه وسلم رجلا افضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأكرمهم مخالطة وأودهم جوارا وأعظمهم حلما وأمانة وأصدقهم حديثا وأبعدهم عن الفحش والأذى ، وما رئى ملاحيـــا ولا مماريا أحدا حتى سماه قومه (بالصادق الأمين) لما جمع الله له من الأمور الصالحة فيه . وكان عمه أبو طالب يحفظه ويحوطه ويعضده وينصره إلى أن مات .

ومكة التي عاش فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشرفت بمولده وشهدت طفولته وشبابه وكهولته ، والتي عاش فيها ثلاثا وخمسين سنة قبل الهجرة إلى يثرب ، بلد فقير ، برغم تمتعه بموقع جغرافي خطير على طريق التجارة بين الشام واليمن ، لذا لم يكن لقومها عمل سوى التجارة والمشاركة في رحلتي الشتاء والصيف بين الشام واليمن . وإن أبرز ما يلحظه الزائر المسلم لهذا البلد الحرام الطبيعة القاسية المحيطة به من جبال سود جرداء صماء إلى أودية فقراء لا زرع فيها ولا ماء إلى مناخها القاسي الشديد القيظ في الصيف والشديد البرد في الشتاء . الأمر الذي يجعل المرء يتساءل سبحان ربي عن حكمته في أن تنفجر من هذه البيئة القاسية ينابيع الرحمة والحنان وتشع من ظلام أجوائها أنوار الهداية والإيمان . في هذه المدينة الصحراوية التي تحتضنها الجبال الشاهقة الصماء وتخاصم العيش فيها معظم الكائنات الحية ولد الهدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاش أيام طفولته وشبابه ورجولته وتلقى الوحي فيها من عند الله وارتقى بها برسالته لتكون أقدس رسالات الله ولتكون آخر تنزيل من السماء إلى الأرض .

كان محمد صلى الله عليه وسلم يرقب الوضع الاجتماعي في مكة ، وهو في ريعان الشباب ، وقد لحظ الفارق الكبير بين الأغنياء والفقراء فهنالك كبار الأثرياء الذين يعيشون حياة البذخ والترف وينغمسون في الملذات والشهوات ، بينما كان هنالك الفقراء المعدمون الذين لا يجدون قوت يومهم ، وكانوا يمثلون غالبية السكان . هذا فضلا عن الأرقاء التعساء ، الذين اشتروا من أسواق النخاسة وكانوا يعيشون عيشة الدواب والحشرات وقد جاءت ثروة أثرياء قريش من التجارة العالمية وإقراض أموالهم بالربا ، وكان معظمهم قساة القلوب فاسدى النفوس ، لا يعينون المحتاج ولا يغيثون المكروب . كانوا يستعبدون الفقراء ويذلونهم ويسخرونهم في اشق

الأعمال مقابل الحصول على الطعام . وكان بعضهم لا يتورع عن أكل مال اليتيم ، ولا عن إكراه فتياتهم على احتراف البغاء ابتغاء الاستيلاء على ما يحصلن عليه من مال .

ومن رجال مكة الأثرياء الذين عرفهم محمد صلى الله عليه وسلم ، في شبابه : الأسود بن المطلب ، المعروف بأبي زمعة ، هشام بن المغيرة المخزومي ، والد عمرو بن هشام (أبو جهل) ، وعمرو بن عبد الله بن صفوان بن أمية والوليد بن المغيرة المخزومي ، والد خالد بن الوليد ، وسعيد بن العاص بن أمية ، وقيس بن عدى السهمي ، وأبو سفيان بن حرب ، وعبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب) ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام .

ولقد أدى هذا التردى الاجتماعي في مكة ، قبل الإسلام ، إلى الخلل في المجتمع وإلى شيوع الفساد والرذيلة وانتشار الظلم فيه ، وكان الأمر في حاجة ماسة إلى الإصلاح ، فقد كان مجتمع مكة يغلي كأنه يعيش على فوهة بركان . ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم بمعزل عن رصد هذه الآفات التي كانت تنخر في جسد مجتمع مكة ، كان يرى العصبية القبلية وهي تفتك بهذا المجتمع ومن مظاهرها حمية الجاهلية والأخذ بالثأر والحروب المستمرة بين القبائل بعضها وبعض لأتفه الأسباب ، الأمر الذي زرع الكراهية والحقد والانقسام بينهم وجعل الجروح تظل تنزف بالدم طوال تاريخهم .

كان عليه الصلاة والسلام يستنكر العادات السيئة التي ورثها قومه ويستهجنها وأولها عبادة الأصنام والأوثان التي لا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها من الأمر شيئا ولا للناس . كذلك كان يكره ويستنكر عادة وأد الإناث خوفا من الفقر أو إلحاق العار بالقبيلة أو العشيرة ، وأيضا أنواع الزواج الباطلة التي كانت تصل إلى حد الزنا ، والتي كانت سائدة بين العرب قبل الإسلام مثل (زواج الشغار) ، و (زواج المقت) و (زواج المشاركة) و (زواج

الاستبضاع) و (زواج الخدن) و (زواج الأسر) . كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنكر حياة المجون والضياع التي كان يعيشها شباب عصره وانغماسهم في الملذات والشهونات وتباهيهم بذلك واعتباره من سمات الشباب والفتوة الحسنة . كما أنه كان يستنكر تفشي شرب الخمر بين الناس وانتشار الخمارات في كل مكان ، وكانت تعرف بالحوانيت والمواخير وكان يتواجد بها (القيان) اللائي احترفن الزنا مع الرقص والغاء .

عاش محمد صلى الله عليه وسلم في صباه وشبابه مثالا للشاب النظيف ، وشب وعين الله ترعاه وتكلأه وتحفظه وتصونه من أقذار الجاهلية . ولم يشارك محمد صلى الله عليه وسلم شباب مكة في لهوهم ولعبهم وإقبالهم على الحياة واستغراقهم في الملذات حتى الأذقان ، وكان ذلك ميسرا لشباب مكة الذين لم يكن يردعهم رادع آنذاك وقد أحلت لهم في مجتمعهم الموبقات والمنكرات . ولقد آثر محمد صلى الله عليه وسلم رصد مجتمعه والتأمل لما يقع فيه تحسره على حالة التردي والانهيار الخلقي التي وصل إليها ، وكثيرا ما كان يؤثر الوحدة والخلوة مع نفسه والتطلع إلى السماء يستلهم منها الإلهام ويستمد السكينة والطمأنينة . وكانت نفسه ، صلى الله عليه وسلم ، حيري ، وكان قلبه ينبض من داخله بهواجس كثيرة غامضة عنه لا يعرف كنهها . وكانت فطرته صلى الله عليه وسلم تأبى عليه أن يكون مثل أقرانه من شباب قريش ، وكان إعداده الرباني يمنعه من التهافت على الدنيا ، فقد أعده الله تعالى إعدادا خاصا لتحمل مسئولية رسالة كبرى . وشب وعين الله ترعاه وتصونه من أدران مجتمعه الجاهلي وفيروساته . كان عليه أن يصبر وينتظر حتى تحين الساعة المرجوة وحتى يتفلق ضوء الصبح الجديد ، وقد أمره الله تعالى بذلك حين قال : " واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) . لقد كفل الله محمدا صلى الله عليه وسلم وحباه بالخلق العظيم وأعده سبحانه ليكون رحمة للبشر أجمعين .

لما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم سن الخامسة والعشرين تزوج من السيدة (خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى) ، وهي من شريفات قريش من بنى أسد . وكانت خديجة قد ترملت وهي صغيرة السن ومات عنها زوجها (أبو هالة) ، هند بن زرارة ، وأنجبت منه إبنها (هالة) . وقد عزفت خديجة عن الزواج بعد موت زوجها ، حتى بلغت سن الأربعين ففكرت في الزواج من محمد صلى الله عليه وسلم الذي حمدت سيرته بين جميع شباب قريش . وقد اختبرت خديجة أمانته وطهره حين استأجرته على تجارة لها ببلاد الشام . وكانت هذه هي المرة الثانية التي يتوجه فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تلك البلاد . وكانت السيدة خديجة تشارك في تجارة الإيلاف بأموالها وتستأجر الرجال الأمناء ليقوموا لها بذلك في قوافل الشام واليمن التجارية نظير أجر تجعله لهم .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة مع خادم للسيدة خديجة يدعى (ميسرة) ، وقد كانت نهاية هذه الرحلة إلى بلدة بصرى التي سبق لرسول الله زيارتها مع عمه أبي طالب وهو في سن الثانية عشرة والتقي فيها هناك ببحيري الراهب . وهنالك باع سلعته التي خرج بها واشترى لخديجة ما طلبت منه شراءه من سلع . ولما عاد الرسول إلى مكة ومعه ميسرة ، أخذ ميسرة يفيض لسيدته في الحديث عما شاهده ولمسه من كرامات محمد صلى الله عليه وسلم أثناء رحلته وعن حسن صحبته . فازدادت بذلك خديجة تعلقا بحب محمد صلى الله عليه وسلم ، فبعثت إليه تعرض عليه نفسها ليتزوج منها ، وكانت تلك عادة الشريفات من نساء مكة أن يخطبن لأنفسهن من يجدن فيه شرف الاقتران بهن .

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة ، وعاش معها عيشة زوجية هانئة هادئة وفرتها له الزوجة الصالحة المحبة . وقد أنجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة كل أبنائه وبناته ما عدا إبنه غبراهيم الذي أنجبه من (ماريا القبطية المصرية) . وكان أبناء

الرسول من خديجة ولدان وأربعة بنات : الولدان هما : القاسم وعبد الله ، الذي لقب بالطيب وبالطاهر ، أما البنات فهن : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضوان الله عليهم أجمعين . وكانت (زينب) كبرى بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تزوجت قبل البعثة من ابن خالتها (أبي العاص بن الربيع) ، وتوفيت في العام الثامن للهجرة ، والإبنة الثانية هي (رقية) ، وولدت قبل البعثة وتزوجت من (عتبة بن أبي لهب) ، ثم طلقت منه حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستمرار عتبة على الكفر ، وتزوجت من بعده (عثمان بن عفان) وهاجرت معه إلى الحبشة وتوفيت في المدينة غداة رجوع المسلمين منتصرين من غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة . والإبنة الثالثة هي (أم كلثوم) ، وقد تزوجت قبل البعثة من (عتيبة بن أبي لهب) ، ثم فارقته لعدم إسلامه ، وهاجرت إلى المدينة وتزوجت من عثمان بن عفان ، بعد وفاة أختها رقية ، وظلت مع عثمان حتى وفاتها عنده في العام التاسع للهجرة . أما (فاطمة) فهي صغرى بنات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولدت في العام الخامس قبل البعثة ، وتزوجت من (على بن أبي طالب) في الام الثاني للهجرة ، وتوفيت في المدينة بعد وفاة أبيها سيد الخلق الخالد الذكر في العام الحادي عشر للهجرة بستة شهور ، ومن أبنائها أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسن والحسين وفاطمة الزهراء ، رضوان الله عليهم أجمعين .

* * *

تصدعت الكعبة ومحمد صلى الله عليه وسلم في سن الخامسة والثلاثين على أثر سيل عارم أصاب مكة آنذاك ، وكانت مكة تتعرض للسيول في أوقات متفاوته وكانت هذه السيول تتفاوت في قوتها وشدة تخريبها . وفي ذلك العام ، الخامس قبل البعثة ، كان تخريب السيل للكعبة قويا ، وكان لزاما أن يعاد بناء الكعبة من جديد على أثر التصدع الشديد الذي أصابها . وقد

تصادف أن رمى البحر الأحمر آنذاك بسفينة تجارية قادمة من مصر إلى شاطئ جدة ، وكانت تلك السفينة مملوكة لتاجر رومي يدعى (باخوم) ، وكان باخوم هذا بناءا إلى جانب كونه تاجرا ، فاشترت قريش منه السفينة بما تحمل من خشب ومواد بناء . وكان يسكن مكة رجل مصري (قبطي) يحترف التجارة ، فوافقهم على أن يعمل لهم مع باخوم في إعادة بناء الكعبة . وذكر (ابن سعد) في طبقاته أن السفينة الرومية كانت قد تحطمت عند مرفا (الشعبية) بسبب فعل الريح القوية ، وذكر أيضا أن (الوليد بن المغيرة) هو ونفر من قريش قاموا بشراء خشب السفينة والاتفاق مع باخوم على أمر بناء الكعبة.

فلما أجمعوا على هدم الكعبة المتصدعة لإعادة بنائها من جديد ، بدأ أبن المغيرة الهدم ، وأخذ المعول فهدم وهدمت معه قريش ، ثم أخذوا في بنائها ، وميزوا البيت وأقرعوا عليه فوقع (لعبد مناف وزهرة) : ما بين الحجر الأسود إلى ركن الحجر ، وجه البيت . ووقع (لبنى أسد بن عبد العزى) و (بني عبد الدار قصى) : ما بين ركن الحجر إلى ركن الحجر الأخر . ووقع (لتيم ومخزوم) ما بين ركن الحجر إلى الركن اليماني . ووقع (لسهم وجمح وعدى وعامر بن لؤي) : ما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود . فبنوا ، فلما انتهوا حيث يوضع الحجر الأسود من البيت قالت كل قبيلة " نحن أحق بوضعه " ، واختلفوا حتى كادوا أن يقتتلوا . ثم جمعوا بينهم أول من يدخل من باب شيبه هو واضعه ، وقالوا : " رضينا وسلمنا " ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من دخل من بني شيبة ، فلما رأوه قالوا : " هذا الأمين ، قد رضينا بما قضى بيننا " ، ثم أخبروه الخبر . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه وبسطه في الأرض ، ثم وضع الحجر فيه ، ثم قال : " ليأتي من كل ربع من أرباع قريش رجل " . فكان في ربع بني عبد مناف (عتبة بن ربيعة) ، وكان في الربع الثاني (ابو زمعة) ، وكان في الربع الثالث (أبو حذيفة بن المغيرة) ، وكان في الربع

الرابع (قيس بن عدى) ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليأخذ كل رجـل مـنكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعا " ، فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله صـلى الله عليـه وسلم بيده في موضعه ذلك ، ثم بنوا حتى انتهوا إلى موضع الخشب عند الـسقف . وحـسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الوضع ومنع ، بحكمته ورجاحة عقله تقاتـل قـريش ، ووضع الحجر في المكان الذي أراده الله تعالى بيد محمد صلى الله عليه وسلم الشريفة .

ومضى العمر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يحيا في مكة حياة طاهرة نظيفة من دنـس الجاهلية ، وقضى محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرين عاما فـي التحنـث والتأمـل والتفكير في سر هذا الكون وسر خالقه ومبدعه ، وكان ينتظر الإجابة عن أسئلة كثيرة كانت تدور في ذهنه وتحير تفكيره عسى أن تجيبه السماء عن هذه الأسئلة وتعطيه الجواب الشافي وطمأنينه القلب .

وقام محمد صلى الله عليه وسلم بأمر أسرته خير قيام ورعاها حتى الرعاية ووفرت له زوجته خديجة الجو الأسري الهادئ الهانئ ورزق منها بالبنين والبنات ، وقضى محمد صلى الله عليه وسلم سنى عمره حتى سن الأربعين في التجارة بالصدق والأمانة . واعتـاد عليـه الـصلاة والسلام أن يذهب ، في كل عام ، إلى جبل في منطقة (حراء) ، يبعد أميالا قليلة شرقي مكة ، في شهر رمضان ، ويصعد هذا الجبل الوعر الصلد إلى غار بداخله يتحنث يه مدة تتراوح ما بين العشرة أيام من الشهر والشهر كله ، متزودا بالقليل من الزاد يكفيه قوته الأيـام التـي يقضيها بداخل الغار .

وكانت نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغ سن الأربعين ، تتهيأ للحدث الكبير والأمر الخطير وكانت روحه الحيري تبحث عن طوق النجاة في بحر الانفعالات الكثيرة داخل نفسه . وكان إذا ما عجز عن تفسير ما يحدث بداخله ومما يجول بخاطره ينظر إلى السماء ويناجي

عالمها يرتقب نزول شيء عليه لا يعلم سره أو كنهه . ولكن في رمــضان هــذا مــن ســن الأربعين ، كانت نفسه تحدثه أن الوقت قد حان له للخروج من هــذه الحيــرة ، وأن وقــت الانتظار قد نفد وأن أبواب السماء قاربت بأن تفتح له . ووقع بالفعل ما توقع عنــدما أذن الله تعالى ببزوغ فجر الإسلام من جديد بعد أن غاب هذا الفجر عن طلوعه حقبا طويلــة كــان آخرها يوم أن بعث الله تعالى نبيه ورسوله عيسى بن مريم إلى قومه من بني إسرائيل يدعوهم إلى عبادتهم ووحدانيته .

وفي يوم الاثنين السابع عشر من رمضان ، العام الثالث عشر قبل الهجرة ، الموافق أول شهر فبراير (شباط) سنة ٦١٠ ميلادية ، فتح باب السماء وانشق عن نور عظيم أضاء الكون كله ونزل منه الملك جبريل الأمين على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو في الغار ، فنزل عليه الوحي بالقرآن الكريم ليعلن له أنه قد آن له أن يتحول من راع للغنم إلى راع للبشر .

* * *

٣- بشارات مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلامات نبوته قبل نزول الوحي عليه وبعده :

أ) قبل نزول الوحي :

قال ابن إسحاق : وكانت الأحبار من اليهود والرهبان النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ، قبل مبعثه لما تقارب من زمانه .

أما أحبار اليهود ورهبان النصارى قد وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه . وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق مــن السمع إذ كانت هي لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم . وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقــع

منهما ذكر بعض أموره ولا تلقى العرب لذلك فيه بالأ ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون ، فعرفوها ، فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثه ، حجبت الشياطين عن السمع وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها فرموا بالنجوم فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد .

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حين بعثه ، وهو يقص عليه خبر الجن غذ حجبوا عن السمع فعرفوا ما عرفوا وما أنكروا من ذلك حين رأوا ما رأوا : (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآن عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا) إلى قوله تعالى : (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) .

فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما منعت من السمع قبل ذلك لئلا يشكل الوحي بشيء من خبر السماء فيلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه لوقوع الحجة وقطع الشبهة فآمنوا وصدقوا ، ثم : (ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) . وكان قول الجن : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) ، أنه كان الرجل من العرب من قريش وغيرهم إذا سافر فتنزل بطن واد من الأرض ليبيت فيه قال : (إن أعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة من شر ما فيه) .

ولقد وجد أحبار اليهود ورهبان النصارى في كتبهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ، قال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي

الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ينهاهم عن المنكــر ويحل لم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانــت علــيهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هــم المفلحــون .) (سورة الأعراف : الآية ١٥٧) .

وقال تعالى : (محمد رسو الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا ســجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فــي التــوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطاه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجــب الــزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين أمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجر عظيما .) (سورة الفتح : الآية ٢٩) .

وقال تعالى : (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين .) (سورة عمران : الآية ٨١) .

وقال ابن إسحاق بأن اليهود كانوا يعرفون قرب نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويكفرون به ، وقال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه من الأنصار قالوا : " إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لما كنا نسمع من رجال يهــود ، وكنــا أهــل شــرك أصحاب أوثان وكانوا هم أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم : فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أجبناه حــين دعانا إلى اله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا بــه ، ففينــا وفيهم نزلت هذه الآيات من سورة البقرة (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لمــا معهــم

وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنه الله على الكافرين) .

وأورد ابن إسحاق حديث مسلمة بن سلامة بن وقش حديثه عن جاره اليهودي الذي أنذر بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : " كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل ، فخرج علينا يوما ن بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل ، وأنا يومئذ أحدث من فيهم سنا على بردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، وذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائناً بعد الموت . فقالوا له : ويحك يا فلان ! أو ترى هذا كائناً ، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم ، والذي يحلف به ، ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار ، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطيفونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً . فقالوا له : ويحك يا فلان ! فما آية ذلك ؟ قال : نبي مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن ، فقالوا : ومتى تراه ؟ فنظر إلى وأنا من أحدثهم سناً ، فقال : إن يستفيد هذا الغلام عمره يدركه " . قال سلمه : "فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو حي بين أظهرنا ، فآمنا به وكفر هو به بغياً وحسداً " . قال : فقلنا له " ويحك يا فلان ! ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ولكن ليس به " .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : "ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه "، ويعلم من هذا أن جميع الأنبياء قد بشروا بمبعثه وأمروا باتباعه . قد قال إبراهيم عليه السلام ، أبو الأنبياء فيما دعا به لأهل مكة : (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) (سورة البقرة : الآية ١٢٩) .

وروى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي أماه قوله : " قلت يا رسول الله ! ما كان بدء أمرك ؟ " ، قال : "دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام " .

وروى ابن إسحاق عن نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : " يا رسول الله أخبرنا عن نفسك " . قال : " نعم أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام " . ومعنى هذا أنه أراد صلى الله عليه وسلم بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره ، فذكر دعوة إبراهيم الذي تنتسب العرب إليه ، ثم بشرى عيسى الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل ، ويدل هذا على أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضاً . أما في الملأ الأعلى ، فقد كان أمره مشهوراً مذكوراً معلوماً حين قبل خلق آدم أبي البشر عليه السلام . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ورد في مسند الإمام أحمد عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني عند الله خاتم النبيين ، وآدم لمنجدل في طينته " ، وفي رواية : سئل رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم : " متى وجبت لك النبوة ؟ " قال : " بين خلق آدم ونفخ الروح فيه " ، ومن حديث ابن عباس : " قيل يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : وأدم بين الروح والجسد "

.

وقال الله تعالى : (الذين يتعبون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) (سورة الأعراف : الآية ١٥٧) .

وثبت في الصحيح أن رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بمدارس اليهود فقال لهم : " يا معشر اليهود أسلموا ، فوالذي نفسي بيده ، إنكم لتجدون صفتي في كتبكم " .

وروى الإمامان أحمد والبخاري عن عطاء بن يسار قال : "لقيت عبد الله إبن عمرو بن العاص ، فقلت له : أخبرني عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال : "أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو يغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا غله غلا الله فيفتح بها أعينا عميا ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً" .

وفي الكتاب العزيز آيات كثيرة تتحدث عن عالم أهل الكتاب بحقيقة قرب بعث محمد برسالة الإسلام ، من ذلك قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين .) (سورة القصص : الآية ٥٢ ، ٥٣) . وقوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفون كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .) (سورة البقرة : الآية ١٤٦) . وقال تعالى : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا .) (سورة الإسراء : الآية ١٠٧ ، ١٠٨) . وقال تعالى إخباراً عن القسيسين والرهبان : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين .) (سورة المائدة : ٨٣) .

وأورد ابن اسحق إثبات بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإنجيل برواية (يحنس الحواري) عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يحنس هذا قد نسخ الإنجيل عن عهد عيسى بن مريم عليه السلام الذي قال : "من أبغضني فقد أبغض الرب ، ولولا إني

صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة ولكن مـــن الآن بطـــروا وظنوا يغرونني وأيضا للرب ولكن لابد من أن تتم الكلمة التي في الناموس . أنهم أبغـــضوني باطلاً فلو قد جاء (المنحمنا) هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب . وروح القدس هذا الذي من عند الرب خرج فهو شهيد على وأنتم أيضا لأنكم قديماً كنتم معي في هذا ، قلت لكم لكيما لا تشكوا" . والمنحمنا بالسريانية : محمد ، وهو بالرومية : البرقليطس (الفـــارقليط) والمـــراد محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد ظهرت علامات النبوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحي إليـــه منهـــا أن حليمة السعدية لما جاءت إلى مكة وأخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم لترضعه قالت لهـــا أمه آمنة بنت وهب : "يا حليمة ، أعلمي أنك قد أخذت مولوداً له شأن ، والله حملته فما كنـــت أجد ما تجد النساء من الحمل ، ولقد أتيت فقيل لي : إنك ستلدين غلاماً فسميه أحمد وهو سيد العالمين ، وقد وقع معتمدا على يديه رافعاً رأسه إلى السماء" . قال محمد بن عمر الواقـــدي : "فخرجت حليمة إلى زوجها فأخبرته ، فسر بذلك ، وخرجوا على أتانهم منطلقة على مشارفهم درت باللبن فكانوا يحلبون منها غبوقاً وصبوحاً ، فطلعت على صواحبها فلما رأينها قلن : من أخذت ؟ فأخبرتهن ، فقلن : والله إنا لنرجو أن يكون مباركاً ، قالت حليمة : قد رأينا بركتـــه ، كنت لا أروي إبني عبد الله ولا يدعنا ننام من الغرث ، فهو وأخوه يرويان ما أحبا وينامـــان ولو كان معهما ثالث لروي . ولقد أمرتني أمه أن أسأل عنه فرجعت به إلى بلادها فأقامت به حتى قامت سوق عكاظ فانطلقت برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تأتي به إلى عراف من هذيل يريه الناس صبيانهم فلما نظر إليه صاح : يا معشر هذيل ، يا معشر العرب . فـــاجتمع إليه الناس من أهل الموسم ، فقال : اقتلوا هذا الصبي ! وانسلت به حليمة فجعل الناس يقولون : أي صبي ؟ فيقول : هذا الصبي ، ولا يرون شيئاً ، وقد انطلقت به حليمة إلى أمه . فيقـــال

للعراف ، ما هو ؟ فقال هم : رأيت غلاما وآلهتي ليقتلن أهل دينكم وليكسرن آلهتكم وليظهرن أمره عليكم . فطلب بعكاظ فلم يوجد ورجعت به حليمة إلى منزلها . فكانت بعد ذلك لا تعرضه لعراف ولا لأحد من الناس" .

قال محمد بن عمر الواقدي : "جعل الشيخ الهذلي يصيح :ياللهذيل وآلهتها ، إن هذا الصبي لينتظر أمراً من السماء . قال : وجعل يغري بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى دله فذهب عقله حتى مات كافراً" .

وأورد الواقدي عن أبن عباس قوله : "خرجت حليمة تطلب النبي صلى الله عليه وسلم وقد بدت البهم تقيل ، فوجدته مع أخيه ، فقالت : في هذا الحر !فقالت أخته : يا أمه ما وجد أخي حراً ، رأيت غمامة تظل عليه إذا وقف وقفت وإذا سار سارت معه حتى إنتهى إلى هذا الموضع" .

وقد تنبأ عبد المطلب ، جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما سمعه من مواصفات مولد النبي وكراماته بأنه سوف يكون له شأن كبير ، وقد حدث بذلك أبناءه لما أرادوا أن يحولوه عن فراشة حول الكعبة . وكان النبي عليه السلام يأتي ، وهو غلام ، حتى يرقى الفراش فيجلس عليه فيقول أعمامه : "مهلا يا محمد عن فراش أبيك" ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منه : "إن ابني ليحدث نفيه بملك" .

وروى أبو طالب ، عم النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يوماً بذي المجاز ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركه العطش فشكي إليه قائلاً : "يا ابن أخي قد عطشت ، وما قلت له ذلك وأنا أرى أن عنده شيئا من الماء ، قال : فنزل عن الدابة وقال : يا عم أعطشت ؟ قال : قلت نعم ، قال فأهوى بعقبه إلى الأرض وإذا بالماء . فقال : اشرب يا عم ، قال فشربت" .

وروى ابن سعد قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع بحيري الراهب عند سفرته الأولى إلـــى الشام وهو ابن ثنتى عشرة سنة ، وكيف أنه لحظ الغمامة تظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام بالنظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته . وأورد ابن سعد الحـــديث الذي دار بين بحيري والنبي صلى الله عليه وسلم وأول سؤال له هو قوله : "يا غلام أســـألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم : لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا بغضهما . قال : فبالله إلا أخبرتني عما أســـألك عنه ؟ قال : سلني عما بدأ لك ، فجعل يسأله عن أشياء من حال نومه فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك من عنده ، ثم جعل ينظر بين عينيه ، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده . قال : فقبل موضع الخاتم . وقالت قريش : "إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرا" . وجعل أبو طالب لما يري من الراهـــب يخـــاف على ابن أخيه ، فقال الراهب لأبي طالب : "ما هذا الغلام منك ؟" قال أبو طالـــب : "ابنـــي" ، قال : "ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا" ، قال : "فابن أخـــي" ، قـــال : "فما فعل أبوه ؟ " قال : "هلك وأمه حبلى به" ، قال : "فما فعلت أمه " ، قال : "توفيت" قريبا ، قال : "صدقت ، ارجع بابن أخيك إلى بلده وأحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منـــه ما أعرف ليبغننه عنتاً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عـــن آبائنا ، وأعلم أني قد أديت إليك الفصيحة" ، فلما فرغوا من تجارتهم خرج به أبو طالب سريعا .

وأورد ابن سعد ، أن رجالا من اليهود رأوا محمد صلى الله عليه وسلم وعرفوا صفته فأرادوا أن يغتالوه ، فذهبوا إلى بحيري فذاكروه أمره فنهاهم اشد النهي ، وقال لهم : "أتجدون صفته ؟

" قالوا : "نعم" ، قال : "فما لكم إليه سبيل فصدقوه وتركوه" ورجع به أبو طالب ، فما خرج به سفراً بعد ذلك خوفاً عليه .

قال الواقدي : قال الراهب لأبي طالب : "لا تخرجن بابن أخيك إلى ما ههنا ، فإن يهود أهل عداوة ، نوهذا نبي هذه الأمة وهو من العرب ويهود تحسده تريد أن يكون من بني إسرائيل ، فأحذر على ابن أخيك" .

وأضاف الواقدي بخصوص علامات النبوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحي غليه ، أنه لما خرج عليه السلام في التجار لخديجة مع غلامها ميسرة حتى قدما بصرى من الشام ، فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان يقال له (نسطورس) ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، وكان يعرفه قبل ذلك ، فقال : "يا ميسرة ، من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ " فقال ميسرة : "رجل من قريش من أهل الحرم" ، فقال له الراهب : "ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي" ، ثم قال : "في عينيه حمرة ؟ " قال ميسرة : "نعم لا تفارقه" ، قال الراهب : "هو هو آخر الأنبياء يا ليت أني أدركه حتى يؤمر بالخروج" .

ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى ، فباع سلعته التي خرج بها واشترى غيرها ، فكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء ، فقال له الرجل : "احلف باللات والعزى" ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما حلفت بهما قط وإني لأمر فأعرض عنهما" . قال الرجل : "القول قولك" . ثم قال لميسرة وخلا به : "يا ميسرة هذا والله نبي ، والذي نفسي بيده إنه لهو تجده أحبارنا في كتبهم منعوتا" ، فوعى ذلك ميسرة ، ثم انصرف أهل العير جميعا .

وكان ميسرة يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يري ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره . قالوا : "كان الله قد ألقى على رسوله المحبة من ميسرة فكان كأنه عبد له" .

وأخبر الواقدي بأن رسول الله حين أراد الله كرامته وابتداءه بالنبوة ، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتا ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجر ولا شجرة إلا قالت : "السلام عليك يا رسول الله" ، فكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً .

وقال ابن عباس : "كانت يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر يجدون صفة النبي صلى الله عليه وسلم عندهم قبيل أن يبعث ، وأن دار هجرته بالمدينة ، فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت أحبار اليهود : "ولد أحمد الليلة ، هذا الكوكب قد طلع" ، فلما تنبى قالوا : "قد تنبى أحمد ، قد طلع الكوكب الذي يطلع" ، كانوا يعرفون ذلك ويقرأون به ويصفونه ، إلا الحسد والبغي" .

وكان إسلام ثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعيه وابن عمهم أسد بن عبيد بسبب حديث ابن الهيبان أبي عمير ، وهو يهودي من الشام أخبر بنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثه بسنوات . وكان أبو الهيبان رجلاً صالحاً يصلي الصلوات الخمس ، وكان يستسقي للناس عند انحباس المطر فينزل المطر ، وعندما حضرته الوفاة قال : "يا معشر اليهود ، ما الذي ترون أنه أخرجني من أرض الخمر والخمير •يقصد الشام) إلى أرض البؤس والجوع ؟ (يقصد الحجاز) " ، قالوا : "أنت أعلم يا أبا عمير" ، قال : "إنما قدمتها أتوكف خروج نبي قد أظلكم زمانه ، هذا البلد مهاجره وكنت أرجو أن أدركه فأتبعه فإن سمعتم به فلا تسبقن إليه فإنه يسفك الدماء ويسبي الذرارى والنساء فلا يمنعنكم هذا منه " ، ثم مات . فلما كان في الليلة ، التي في صباحها فتحت بنو قريظة ، قال لهم ثعلبة وأسيد إبنا سعيه وأسد بن عبيد : "يا معشر يهود والله إنه الرجل الذي وصف لنا أبو عمير بن الهيبان فاتقوا الله واتبعوه" ، قالوا : "ليس به " ، قالوا : "بلى والله إنه لو هو" ، فنزلوا وأسلموا ، وأبى قومهم من بني قريظة أن يسلموا .

وأخبر الواقدي عن عامر بن ربيعة قال : "سمعت زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو من المتحنفين ، يقول لأبي : أنا انتظر نبيا من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب ، ولا أراني أدركــه ، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة فرأيتــه فأقرئــه منــي الــسلام ، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفي عليك . قال له أبي : هلم ، قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليست تفارق عينيه حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد (مكة) مولده ومبعثه ، ثم يخرجه قومه منه ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره ، فإياك أن تخدع عنه ، فإني طفت البلاد كلهــا أطلــب ديــن إبراهيم ٠الحنفية) ، فكل من أسأل من اليهود والنصارى ولمجوس يقولون : هذا الدين وراءك ويعتونه مثل ما نعته لك ويقولون لم يبق نبي غيره" . قال عامر بن ربيعة : "فلمــا أســلمت أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام ، فــرد عليــه اللام وترحم عليه وقال : قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا" .

وروى ابن سعد في طبقاته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان في حجر أبي طالب ، وكان أبو طالب قليل المال ، كانت له قطعة من إبل فكان يؤتي بلبنها ، فإذا أكل عيــال أبــي طالب جميعا أو فرادي لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم النبي صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فكان إذا أراد أن يطعمهم قال : إربعوا حتى يحضر أبني ، فيحضر فيأكل معهم فيفضل من طعــامهم ، وإن كان لئن شرب أولهم ثم يناولهم فيشربون فيروون من أخرهم ، فيقول له أبو طالب : "إنك لمبارك" . وكان صبيان أبي طالبون يصبحون شعثا رمصا ، ويصبح النبي صــلى الله عليــه وسلم مدهونا مكحولا . قالت أم أيمن ، حاضنة النبي صلى الله عليه وسلم ما رأيــت النبــي صلى الله عليه وسلم شكا صغيرا ولا كبيرا ، جوعا ولا عطشا ، كان يغدو فيشرب من زمزم ، فأعرض عليه الغداء فيقول : لا أريده أنا شبعان" .

وكانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبيا يبعث من العرب اسمه محمد ، فسمي من بلغه ذلك من العرب ولده محمدا طمعا في النبوة . وسمي محمد بن خزاعي بن حزابة من بني ذكوران من بني سليم طمعا في النبوة ، فأتي أبرهة باليمن فكان معه على دينه حتى مات ز وكان في بني تميم محمد بن سفيان بن مجاشع ، وكان أسقفا ، قيل لبيه أنه يكون للعرب نبي اسمه محمد فسماه محمدا ، وهناك محمد الجشمي في بني سوكاءة ، ومحمد الأسيدي ، ومحمد الفقيمي ، سموهم طمعا في النبوة .

ب) علامات النبوة بعد نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ذكر أبن سعد في طبقاته عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان بالحجون وهو مكتئب حزين ، فقال : "اللهم أرني اليوم آية لا أبالي من كذبني بعدها من قومي ، فإذا شجرة من قبل عقبة المدينة ، فناداها فجاءت تشق الأرض حتى انتهت إليه فسلمت عليه ، ثم أمرها فرجعت ، فقال : ما أبالي من كذبني بعدها من قومي" .

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها : "يا رسول الله تأتي الخلاء فلا يرى منك شيء من الأذى ! " فقال : "أو ما علمت يا عائشة أن الأرض تبلع ما يخرج من الأنبياء فلا يرى منه شيء ؟ " .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية ، فأهدت إليه امرأة يهودية شاة مشوية ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها هو وأصحابه ، فأنطق الله الشاة وقالت : "إني مسمومة" ، فقال لأصحابه : "ارفعوا أيديكم فإنها قد أخبرتني أنها مسمومة" فرفعوا أيديهم ، فمات بشر بن البراء وكان قد أكل منها ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

اليهودية فقال : "ما حملك على ما صنعت ؟ " قالت : "أردت أن أعلم إن كنت نبيا لم يضرك ، وإن كنت ملكا أرحت الناس منك " ، فأم بها فقتلت .

قال أبن عباس : حضرت عصابة من اليهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : "يـا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي " ، قال : "سلوني عم شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على نبيه لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتمـوه لتتـابعني علـى الإسلام" ، قالوا : "فذلك لك " . قال : "فسلوني عم شئتم" ، قالوا : "أخبرنا عن أربـع خـلال نسألك عنهن ، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة من ماء الرجل ، وكيف يكون الذكر منه وكيف تكون الأنثى ؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة ؟ " قال : "فعليكم عهد الله لئن أنـا أخبـرتكم لتتابعوني" ، فأعطوه ما شباء من عهد وميثاق . قال : "فأنشدكم بالذي أنـزل التـوراة علـى موسى هل تعلمون أن إسرائيل (يعقوب) مرض مرضا شديدا وطال سقمه منه ، فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب غليه وأحب الطعام إليه ، فكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها" ، قالوا : "اللهم نعم" ، قال : "اللهم أشهد عليهم" . قـال : "فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجـل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله : إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكرا بإذن الله ، وغن علا ماء المرأة على ماء الرجـل كـان أنثى بإذن الله" ، قالوا : "اللهم نعم" . قال : "اللهم أشهد عليهم" . قال : "فأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه " ، قالوا : "اللهم نعم" ، قالوا : "اللهم أشهد عليهم" ، قالوا : "أنت الآن ، فحدثنا من وليك من الملائكـة فعنـدها نجامعك أو نفارقك" ، لو كان وليك سواء من الملائكة لتابعناك وصدقناك" ، قال : "فما يمنعكم

من أن تصدقوه ؟ " قالوا : "إنه عدونا" . فعند ذلك قال الله جل ثناؤه : (قل مـــن كـــان عـــدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) إلى قوله (كأنهم لا يعلمون) . فعند ذلك باءوا بغـــضب على غضب .

قال أنس بن مالك ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أني لقائم عند المنبر يوم الجمعـــة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، إذ قال بعض أهل المسجد : "يا رسول الله حـــبس المطر وهلكت المواشي فادع الله أن يسقينا" ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ومـــا نرى في المساء من سحاب ، فألف الله بين السحاب فأمطرتنا حتى أغرقتنا ، واستمرت تمطر سبع ليال حتى الجمعة الثانية ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب . فقال بعض القوم : " يا رسول الله تهدمت البيوت وحبس السفار فادع الله أن يرفع عنا" ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال : "اللهم حوالينا ولا علينا ، فتقور ما فوق رؤوسنا منها حتى كأنـــا فـــي أكليل يمطر ما حولنا ولا نمطر" .

وأورد ابن سعد في طبقاته من كرامات رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم ، أن إمـــرأة مـــن الأنصار قد صنعت طعاما بسيطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبت من زوجهـــا بـــأن يذهب إليه ويساروه بالدعوة لحضور هذا الطعام عندهما ، فذهب الرجل إلى رسول الله ليدعوه فوجد عنده بعض أصحابه ، فلما دعاه سرا ، استجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واخـــذ معه ِأصحابه وكانوا كثرا ، ولما وصلا لمنزل المضيفين ضاقت الحجرة بعـــددهم ، وأصـــاب المرأة الخجل لقلة الطعام ، الذي أعدته وقصدت به النبي وليس ذلك العدد الكبير من الضيوف . فطلب منها الرسول الكريم إحضار ما أعدت من طعام فأحضرته وكان بمثل الكف وضعته في إناء أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده في الإناء ويقول : "بسم الله الرحمن الرحيم ما شاء الله" ، ثم يقول : "إدنوا فكلوا فـــإذا شـــبع

أحدكم فليخل لصاحبه " ، فجعل الرجل يقوم والأخر يقعد حتى ما بقى من أهل البيت أحـــد إلا شبع ، ثم قال : "أدع لي أهل الحجرة" ، فجعل يقعد قاعد ويقوم قائم حتى شبعوا ، وقال : "أدع لي أهل الدار" ، فصنعوا مثل ذلك ، وبقى مثل ما كان في الإناء ، فقال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم : "كلوا وأطعموا جيرانكم" .

وأورد من كراماته أيضا قوله : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر يوما ، ثم انطلق حتى قعد على المقاعد التي كان يأنيه عليها جبريل ، فجاء (بلال) فنـــادى بالعـــصر ، وبقى رجال من المهاجرين ليس لهم أهل بالمدينة ، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح أروح فيه ماء ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم كفه في الإناء فما وسع الإنـــاء كـــف رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها ، فقال : "بهؤلاء الأربع في الإناء" ، ثـــم قـــال : ادنـــوا فتوضأوا " ، ويده في الإناء ، فتوضأوا حتى ما بقى منهم أحد إلا توضأ ، وقيـــل أن عـــددهم كان ما بين السبعين والثمانين .

وأورد كذلك من كراماته رسوخ أقدام فرس سراقة بن مالك ركب في طلب النبـــي صـــلى الله عليه وسلم بعدما استقسم بالأزلام أن يخرج فلحقهم فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أن ترسخ قوائم فرسه فرسخت ، فقال : "يا محمد أدع الله أن يطلق فرسي فارد عنك " ، فقال النبي عليه السلام : "اللهم إن كان صادقا فأطلق فرسه" ، فخرجت قوائم فرسه .

ومن كراماته أمر الأرضة وصحيفة المقاطعة لقريش لبني هاشم والمطلب ، وذلك أن قريـــشا لما تكاتبت على بني هاشم حين أبوا أن يدفعوا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا تكاتبوا ألا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم ، ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم ، ولا يخـــالطوهم فـــي شيء ولا يكلموهم ، فمكثوا ثلاث سنين في شعبهم محصورين ، إلا ما كان من أبي لهب فإنه لم يدخل معهم ودخل معهم بنو المطلب بن عبد مناف . فلما مضت ثلاث سنين أطلع الله نبيه

على أمر صحيفتهم ، وإن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور أو ظلم وبقى ما كان فيهـــا من ذكر الله ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب ، فقال أبو طالب : "أحق ما تخبرني به يا أبن أخي ؟ " ، قال : "نعم والله " ، فذكر ذلك أبو طالب لاخوته فقالوا له : "ما ظنك به ؟ " ، فقال أبو طالب : "والله ما كذبني قط" قالوا : "فما ترى ؟ " قال : "أرى أن تلبسوا أحسن ما تجدون من الثياب ، ثم تخرجون إلى قريش فنذكر ذلك لهم قبل أن يبلغهم الخبر " ، فخرجوا حتى دخلوا المسجد ووقفوا عند الحجر ، وكان لا يجلس فيه غلا شيوخ قـــريش وذو الأمر فيهم ، فنظروا ما يقولون ، فقال أبو طالب : "إنا قد جئنا لأمر فأجيبوا فيه بالذي يعرف لكم" ، قالوا : "مرحبا بكم وأهلا ، وعندنا ما يسرك فما طلبك ؟ " قـــال : إن أبـــن أخـــي قـــد أخبرني ، ولم يكذبني قط ، أن الله سلط على صحيفتكم التي كتبتم الأرضة ، فلمست كل مـــا كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى فيها كل ما ذكر به الله ، فإن كان أبن أخـــي صادقا نزعتم عن سوء رأيكم ، وإن كان كاذبا دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه إن شئتم " ، قالوا : "قد أنصفتنا" ، فأرسلوا إلى الصحيفة ، فلما أتى بها ، قال أبو طالب "إقرأوهـــا" ، فلمـــا فتحوها إذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أكلت كلها : إلا ما كان من ذكـــر الله فيها ، فسقط في أيدي القوم ثم نكسوا رؤوسهم . فقال أبو طالب : "هل يبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة ؟ " فلم يراجعه أحد من القوم ، وتلاوم رجال من قريش علـــى مـــا صنعوا ببني هاشم فمكثوا غير كثير . ورجع أبو طالب إلى الشعب وهو يقول : "يـــا معـــشر قريش علام نحصر ونحبس وقد بان الأمر ؟ " ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة فقال : "اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل منا ما يحرم منا " ، ثم انصرفوا .

قال ابن أسحق ، عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها حدثتـــه : "أن أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامتـــه ورحمـــة

العباد به : الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه غلا جاءت كفلق الصبح" . قالت : "وحبب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب غليه من أن يخلو وحده" .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء من كل سنة شهرا ، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية وإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به ، إذا انصرف من جواره ، الكعبة قبل أن يدخل بينه ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر : شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها ، جاءه جبريل عليه بأمر الله تعالى .

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية ، يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكده ، وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أديته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ، ولم يختلفوا للحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم أو صاحبت الميلاد ، حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام وشاع نوره يملأ الآفاق .

لا موضع هنا لاختلاف ، فلقد قالت حوادث الكون أن الدنيا كانت آنذاك في حاجة إلى رسالة وقالت حقائق التاريخ بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو صاحب تلك الرسالة ، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ . اتفقت إذن أحوال العالم على انتظار رسالة ، واتفقت أحوال محمد صلى الله عليه وسلم على ترشيحه لتلك الرسالة . فلقد كان محمد صلى الله عليه وسلم مستكملا للصفات التي لا غنى عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ ،

فكانت له فصاحة السان واللغة ، وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة بما حباه الله من صفات وخلق جعلته يسمو بها فوق غيره من الناس ، وكانت له قوة الإيمان بدعوته وقوة الإيمان بالله وغيرته البالغة وحماسه الشديد لإنجاح هذه الدعوة التي اصطفاه الله بها .

٤- إشراق نور النبوة

في يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان ، العام الثالث عشر قبل الهجرة ، نزل جبريل عليه السلام بالوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف إلى أهله حتى أتى زوجه خديجة وأخبرها الخبر وهو يرجف من هول ما رأى وما وقع ، وقال لها : "لقد خشيت على نفسي ، إني أرى ضوءا وأسمع صوتا خشيت أن أكون كاهنا وأن يكون في جنن" ، فبدت السعادة على وجهها وتبسمت واستبشرت قائلة : "لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا أبن عبد الله ، أبشر يا أبن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتقري الضيف وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق" . ثم قامت خديجة وانطلقت إلى أبن عمها (ورقة بن نوفل بن أسد أبن عبد العزي) ، وكان إمرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله له أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا أصابه العمي ، فأخبرته بأمر زوجها ، فقال أبن نوفل : "قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة فقد جاءه الناموس (التشريع) الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت" ، فرجعت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقوله ورقة ، فخرج عليه السلام إلى الكعبة وطاف بها ، فلقيه ورقة هناك فقال له : "يا أبن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت" فأخبره ، فقال له ورقة : "والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك

الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ، يا ليتني فيها جذعا (شابا) ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك" فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أو مخرجي هم ؟ " فقال : "نعم ، لم يأت أحد بمثل ما جئت إلا عودى ، وغن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا" . ثم أدنى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم منه وقبلها ، ثم انصرف . وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله ، ولم يلبث ورقة أن توفي بعد ذلك بأيام ، وهو على الإسلام . وقد روى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، على لسان السيدة عائشة رضي الله عنها أنه في الجنة ، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم "لا تسبوا ورقة ، فإني رأيت له جنة أو جنتين" .

وأسلمت خديجة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنت بما نزل عليه من وحي ، وكانت أول من أسلم وأول من أيد دعوة الإسلام ووقف إلى جانب صاحبها وهون عليه وشاركه ما لاقاه من الناس ، فبشرها الله تعالى لذلك ببيت في الجنة "من قصب لا صخب فيه ولا نصب" .

وفتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة أربعين يوما حتى شق ذلك عليه فأحزنه حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكلي يلقى نفسه تبدي له جبريل فقال : "يا محمد ! إنك رسول الله حقا" فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدي له جبريل ، فقال له مثل ذلك . حتى جاءه جبريل بعدها على صورته الملائكية جالسا على كرسي بين السماء والأرض ، فرعب منه ، ورجع إلى خديجة وهو يرتعد قائلا لها : "دثروني دثروني" ، فأخذت خديجة بيده وهونت الأمر عليه ودثرته كما طلب ، فأنزل الله عليه قوله في سورة

المدثر : (يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر) .

ثم جاءه جبريل ثانية ونزل عليه بسورة الضحى بشرى له من عند الله وتأكيدا من عنده تعالى بأنه معه وأنه اصطفاه لرسالته وأنه ما ودعه ولا تخلى عنه ولكنه اصطفاه إليــه واجتبــاه ، وذلك في قوله تعالى : (والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى) ، فحمى الوحي بعد ذلك وتتابع نزوله علــى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقام حينئذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في لارسالة أتم القيام ، وشمر عن ساق العــزم ، ودعا إلى الله القريب والبعيد ، والأحرار والعبيد ، فأمن به حينئذ كل لبيب نجيــب ســعيد ، وخالفه وعصاه كل جبار عنيد . وكانت دعوته أول الأمر للإسلام سرا ، وقبل دعوته ودخــل في الإسلام بعض الرجال والنساء والشباب أغنياء وفقراء أحرار وأرقاء .

وكان أول من بادر إلى التصديق من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق ، ومن الغلمان علي بن أبي طالب ، ومن النساء خديجة بنت خويلد ، زوجته عليه السلام ، ومن الموالي مولاه زيــد بن حارثة الكلبي ، رضي الله عنهم جميعا وأرضاهم ، ومن أعيان قريش آمن به مــن بنــي هاشم : على بن أبي طالب ، وكان وقتها صبيا في الثامنة من عمرة وكان يعيش فــي حجــر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمن به وأسلم أخوه جعفر بن أبي طالب (الطيار) ، ومــن بني عبد شمس أسلم : عثمان بن عفان (ذو النورين) ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وأخــوه عمرو بن سعيد بن العاص ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة . ومن بني المطلب : عبيدة بــن الحارث ، ومن بني تميم : أبو بكر ٠الصديق) بن قحافة ، وطلحة بن عبيد الله . ومن بني عبد الدار : مصعب بن عمير . ومن بني أسد : الزبير بن العوام . ومن بني عدى : سعيد بن ريد

، ونعيم بن عبد الله . ومن بني عامر : أبو سبرة بن أبي رهم وسليط بن عمرو وأخويه حاطب وحطاب أبناء عمرو . ومن بني الحارث : أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح . ومن بني زهرة : عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وأخوه عمير بن أبي وقاص . ومنبني مخزوم : عياش بن أبي ربيعة ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم . ومن بني سهم : خنيس بن حذافة . ومن بني جمح : عثمان بن مظعون ، وقدامة بن مظعون ، وعبد الله إبن مظعون ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، وحاطب بن الحارث .

وأول من اسلم من الموالى أربع عشرة هم : خباب بن الأرث ، صهيب أبن سنان ، عامر بن فهيرة ، عمار بن ياسر ، زيد بن حارثة ، واقد بن عبد الله ، خالد بن البكير ، وأخواه عاقل وإلياس إبني البكير ، عبد الله بن جحش ، وأخوه عبد بن جحش ، وبلال بن رباح .

وأول من اسلم من النساء اثنتي عشر إمرأة هم : خديجة بنت خويلد ، أسماء بنت أبي بكر ، وأختها عائشة بنت أبي بكر ، سماء بنت عميس ، زوج جعفر بن أبي طالب ، أم أيمن بركة ، زوج زيد بن حارثة وحاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاطمة بنت الخطاب ، زوج سعيد بن زيد ، فاطمة بنت المحلل ، زوج حاطب بن عمرو ، وفكيهة ، زوج حطاب بن عمرو ، رملة بنت أبي عوف ، زوج المطلب بن أزهى ، أمية بنت خلف ، زوج خالد بن سعيد ، أسماء بنت سلامة ، زوج عياش بن أبي ربيعة ، وسمية زوج ياسر ، وأم عمار بن ياسر .

وهكذا فإنا نرى أن دخول الإسلام في أول دعواه لم يقتصر على عامة الناس والفقراء والمستضعفين والعبيد ، كما يزعم بعض المستشرقين ، بل دخل فيه عدد من أشراف قريش وأبنائهم يزيدون على الثلاثين نفرا ، وهو عدد يصل إلى نصف عدد إجمالي الذين دخلوا في الإسلام آنذاك ، وهم السابقون الأولون ، الذين وصل عددهم إلى ستين نفرا .

ولقد استمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى رسالته سرا حتـــى أذن الله لـــه بالجهر بها بعد ثلاث سنوات من مبعثه . وكان خلال تلك السنوات الثلاث يلتقي بأتباعه فـــي دار الأرقم بن أبي الأرقم في أعالي مكة ، كما كان يصلي بهم خفية في شعاب مكـــة خـــشية عليهم من قومهم . وكان الله تعالى قد فرض الصلاة على رسوله وعلى المسلمين في الـــسنة الثانية من البعثة وقد قام جبريل عليه السلام بتعليمه كيفية الصلاة والوضوء وتعيين أوقاتها .

وذكر ابن أسحق ، بأن الصلاة حين فرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام ، وهو بأعلى مكة ، فهمز له بعقبه من ناحية الوادي فانفجرت منه عين ، فتوضأ جبريل عليه السلام ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ، ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله كما رأى جبريل توضأ ، ثم قام به جبريل فصلى به ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام . وجاء رسول الله صـــلى الله عليه وسلم خديجة ، فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراها جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم صلى بها كما صلى به جبريل فصلت بصلاته .

وروى ابن عباس عن تعيين جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم أوقات الصلاة ، فقال : لما افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام ، فـــصلى بـــه الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى بـــه المغـــرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل ، ثم صلى به الصبح مسفرا غير مشرق ، ثم قال : يا محمد ، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصـــلاتك بالأمس .

* * *

وبعد مرور السنوات الثلاث أمر الله تعالى رسوله أن يصدع بالدعوة وأن يجاهر بهـا ، وأن يدعو الناس للإسلام علانية ، ونزل عليه بصدد ذلك قوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين) . كذلك أمره الله تعالى أن يبدأ بالدعوة عشيرته الأقربين ، فقال تعالى : (وانذر عشيرتك الأقربين . وأخفض جناحك لمن أتبعك من المـؤمنين . فـإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حـين تقـوم . وتقلبك في الساجدين . إنه هو السميع العليم) (سورة الشعراء : ٢١٤ – ٢٢٠) .

ولما أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآيات أتى النبي صلى الله عليه وسـلم جبـل (الـصفا) ، فصعد عليه ثم نادى : "يا حباحاه" ، فاجتمع الناس غليه بين رجل يجئ إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله : "يا معشر قريش : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هـذا الجبـل أكنتم تصدقوني ؟ " قالوا : "نعم ، أنت عندنا غير منهم ، وما جربنا عليك كذبا قط " . قـال : "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة – حتى عدد الأفخاذ من قريش – إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وأني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الأخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله " ، فقال أبو لهب عمه (عبد العزى بن عبد المطلب) : "تبا لك سائر اليوم ؟ ألهذا جمعتنا ؟ " فأنزل الله صـلى الله عليـه وسلم تبارك وتعالى فيه : (تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيـصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد) .

قال أبن أسحق : "فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله تعالى ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوه خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون ، ورق لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحدبه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه" .

وأخبر الواقدي بأنه لما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ومن معه وفشا أمره في مكة ودعا بعضهم بعضا ، فكان أبو بكر يدعو ناحية سرا ، وكان سعيد بن زيد مثل ذلك ، وكان عثمان بن عفان مثل ذلك ، وكان عمر يدعو علانية ، وحمزة بن عبد المطلب ، وأبو عبيدة بن الجراح . فغضبت قريش من ذلك ، وظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد والبغي ، وأشخص منهم رجال فبادوه وتستر آخرون وهم على ذلك الرأي ، إلا أنهم ينزهون أنفسهم عن القيام والأشخاص برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أهل العداوة والمباداة بها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، والذين يطلبون الخصومة والجدل هم : أبو جهل (الحكم بن هشام) وأبو لهب (عبد العزى بن عبد المطلب) ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس بن عدى (أبن الغيطلة ، والغيطلة أمه) ، والوليد بن المغيرة ، وأميه بن خلف وأخوه أبي بن خلف ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمي ، والنضر بن الحارث بن كلده ومنبه بن الحجاج ، وزهير بن أبي أمية ، والسائب بن صيفي ، والأسود بن عبد الأسد ، والعاص بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هاشم ، وعقبة بن أبي معيط ، وابن الأصدي الهذيلي ، والحكم بن أبي العاص ، وعدى بن الحمراء . وذلك انهم كانوا جيرانه . والذي كانت تنتهي عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندهم : أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث ، وكان عتبة بن ربيعة وأخوه شبيه بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة ولكنهم لم يتعرضوا للنبي بأذى ، ولم يسلم من هؤلاء جميعا أحد إلا أبو سفيان والحكم بن أبي العاص .

عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت بين شر جارين ، بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ، وإنهما كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على

بابي حتى أنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه على بابي . فيخرج به رسول الله فيقول : يا بني عبد مناف أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه بالطريق " .

واستمر أتباع النبي صلى الله عليه وسلم يؤدون صلواتهم في شعاب مكة ، ووقع بينهم في إحدى المرات قتال وبين المشركين ، وذلك أنه بينما كان سعد بن أبي وقاص يصلي مع نفر من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من الشعاب إذ ظهر عليهم نفر من المشركين فأنكروا عليهم صلواتهم وعابوها . واشتد الجدال بين الطرفين حتى تقاتلا . فضرب سعد يؤمئذ رجلا من المشركين بعظم فخذ بعير فشج رأسه ، فكان دمه أول دم أهرق في الإسلام .

وبدأت قريش تشعر بخطورة دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع ازدياد عدد الداخلين فيها يوما بعد يوم ، وكان أول ما يعنيها من خبر هذه الدعوة موقفها من عبادتهم وأصنامهم وأوثانهم ، وأدركوا خطر هذه الدعوة حين استنكرت تلك المعبودات وأعلنت بطلان أمرها ، فتصدوا لها ووقفوا دونها بكل ما يملكون من قوة .

وكان أبو جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة) هو القائد الأكبر لعملية التصدي هذه ، وقد كان صاحب نفوذ كبير في قومه من بني مخزوم ، وكان من كبار تجارها وأغنيائها ، فصار العدو الأول اللدود للإسلام وللمسلمين . وقد قاوم أبو جهل انتشار الإسلام بكل الطرق ، فإذا ما سمع بدخول أي شريف من أشراف مكة الإسلام ، ذهب غليه وعيره بنقضه عبادة آبائه وأجداده ، وهدده في ثروته وتجارته عن كان تاجرا . وإن كان الداخل في الإسلام فقيرا معدما لا ناصر له قام بضربه وتعذيبه وحرض الناس ضده .

وقد عانى الفقراء الداخلون في الإسلام الكثير من وراء ذلك ، ومن أمثلة هؤلاء الفقراء (بلال بن رباح) ، مولي أمية بن خلف ، الذي اعتنق الإسلام دون إذن سيده ، فقام سيده بتعذيبه

تعذيبا شديدا ، وذلك بإخراجه عاريا إلى بطحاء مكة وقت قيلولة النهار مع شدة لهيب الشمس ، وكان يطرحه على الرمال الساخنة وهو موثق بالحبال ، وكان يضع على صدره صـــخرة كبيرة ساخنة ليرده بذلك عن إسلامه . وقد ضرب بلال أكبر المثل في قوة التحمل والـــصبر على الأذى والاستمساك بدينه وإيمانه الذي ذاق حلاوته ، فكان كلما طلب منه سيده أن يكفــر بمحمد وبرب محمد ، كان يرد عليه بكلمة واحدة هي : "أحد ... أحد" .

وقد قام بنو مخزوم وعلى رأسهم أبو جهل بإخراج عمار بن ياسر وأبيه ياسر وأمه سمية بنت خياط ، وكانوا من فقراء القبيلة وأسلموا ، فعذبوهم في رمضاء مكة وكووهم بالنـــار ، فكـــان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر عليهم ، وهم على هذه الحال ، فيناديهم مخففا عنهم ما هم فيه بقوله : "صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة" . وقد مر أبو جهل يوما بـــسمية أم عمـــار ، وهي تعذب مع زوجها وابنها ، فطعنها بحرية كانت في يده في فرجها فقتلها ، وكانت بـــذلك أول شهيدة في الإسلام .

وقام المشركون بضرب عبد الله بن مسعود ، اعتنق الإسلام ، في كل جسده حتى سال الـــدم منه من كل جزء فيه وذلك لجهره بالشهادتين عند المقام بالكعبة لأول مرة . وقد جـــاء هـــذا الاضطهاد الذي تعرض له فقراء المسلمين بعكس ما كانت تنتظره قريش منه ، فقـــد تـــشبث هؤلاء بدينهم وصاروا أكثر تمسكاً به وضربوا في القدرة على تحمل الأذى المثـــل النـــادر ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إمامهم في ذلك .

وعطف أبو طالب ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن أخيه ، وأعلن حمياتـــه لـــه وعدم رده عن دعواه ، رغم عدم دخوله في الإسلام ، لذلك لم تفعل قريش بالرسول ما فعلـــت بالمستضعفين من اتباعها لمكانة عمه وشرفه فيهم . وحاولت قريش أن تقنع العم بأن يتخلـــى ابن أخيه عن دعوته ، ولكنه أبى ووقف مع ابن أخيه حين رأى ثباته في دعوته . وقام أبـــو

طالب ، حين رأى صنيع قريش بالمسلمين ، فدعا قومه من بني هاشم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا عمه أبو لهب . فتمادى المشركون في تعذيب فقراء المسلمين وإعلان الحرب ضـــدهم في كل مكان نكاية في الرسول وعمه وبني هاشم عشيرته .

وهكذا كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عمان كافران ، أحدهما أشد الناس عليه وأكثرهم عداوة له وهو أبو لهب ، والثاني أشد الناس حباً له وأكثرهم إحساناً لهه وهو أبو طالب . وقد خالف أبو طالب قومه في عدائهم لابن أخيه مع إنه كان على دينهم ، إلا أن الله امتحن قلبــه بحبه طبعياً لا شرعياً . وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعــالى وممــا صــنعه لرسول من الحماية ، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قــريش وجاهــة ولا كلمة ولا كانوا هابوه ولا احترموه ولا إجترأوا عليه ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه.

وكان وفد من إشراف قريش قد مشى إلى أبي طالب يفاوضه في أمر ابن أخيه ، وكان في هذا الوفد : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد منافس ، وأخوه شيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، وأبو البختري (العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى) ، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والحكم بن هشام بن المغيرة (أبــو جهل) ، والوليد بن المغيرة ، ونبيه بن الحجاج بن عامر ، وأخوه منبه بن الحجاج ، والعاص بن وائل بن هشام السهمي . ودخل هذا الوفد علي أبي طالب فقالوا له : " أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا ، وقد رأيت الذي فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك من تركهم آلهتنا وطعنهم علينــا وتسفيههم أحلامنا وتضليلي آبائنا ، فإما أن تكله عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثــل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه " . فنادى أبو طالب على ابنه عقيل وقال له : " يــا عقيــل ! انطلق فأتني بمحمد " فانطلق واستخرجه من خنس (بيت صغير) فجاء به في الظهيرة فــي

شدة الحر ، فلما أتاهم قال له أبوه طالب : " إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم ، فانته عن أذاهم " ، فحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء فقال : "ترون هذه الشمس ؟ " قالوا : نعم " . قال : " فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منها بشعلة " ، فقال أبو طالب : " والله ما كذب ابن أخي قط ، فأرجعوا " .

وفي ذلك دلالة على أن الله تعالى عصمه بعمه ، مع خلافه إياه في دينه ، وقد كان الله عاصماً له حيث لا يكون عمه بما يشاء ، ولا معقب لحكمه .

ولقد توعد أبو جهل أن يطأ على رقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رآه يصلي عند الكعبة وليعفرن وجهه بالتراب ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي لينفذ وعده أمام من تواجد وقتها عند الكعبة ، ففوجئوا به ، بعد أن تقدم تجاه محمد صلى الله عليه وسلم ، ينكص على عقبيه مذعوراً ويتقي بيديه . فقالوا له : " مالك ؟ " ، قال : لقد وجدت بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة " ، ولما سألوا رسول الله عن ذلك ، قال لهم : " لو جنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً ".

وروى عبد الله بن مسعود قوله : " ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش ، غير يوم واحد ، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس ، وسلا جذور قريب منه ، فقالوا : من يأخذ هذا السلا فيلقيه على ظهره ؟ فقال عقبة ابن أبي معيط : أنا : فأخذه فألقاه على ظهره ، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة (ابنته) فأخذته عن ظهره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم عليك بهذا الملأ من قريش ، اللهم عليك بعتبة بن ربيعة ، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة ، اللهم عليك بأمية بن خلف " ، قال عبدالله : " فلقد رأيتهم قتلوا جميعاً يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب ، غير أمية بن خلف فإنه كان رجلاً ضخماً فتقطع " .

وروى عبدالله بن عمرو بن العاص أن أشد ما صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة ، إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ " .

وعاودت قريش سعيها مع أبي طالب لإقناع الرسول بوقف دعوته بعد أن رأوا تزايد عدد اتباعه في ظل حماية عمه له ، فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة (أخي خالد بن الوليد) ، فقالوا : " قد جئناك بفتى قريش جمالاً ونسباً ونهادة وشعراً ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه ، وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله ، فإن ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة " ، فقال لهم أبو طالب : " والله ما أنصفتموني ، تعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابن أخي تقتلونه ؟ ما هذا بالنصف ، تسومونني سوم العرير الذليل ؟ " . قالوا : " فأرسل إليه فلنعطه النصف " . فأرسل إليه أبو طالب ، فجاء رسول الله ، فقال : " يا ابن أخي هؤلاء عمومتك وإشراف قومك وقد أرادوا ينصفونك " ، فقال رسول الله : " قولوا اسمع " ، قالوا : " تدعنا وآلهتنا ، وندعك وإلهك " ، قال أبو طالب : " قد أنصفك القوم فاقبل منهم " ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرأيتكم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطى كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم ؟ " . فقال أبو جهل : " إن هذه لكلمة مربحة ، نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها " ، قال : " قالوا لا إله إلا الله " ، فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون : " اصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد " ، وكان المتكلم بهذا عقبة بن أبي معيط ، وقالوا " لا نعود إليه أبداً وما خير من أن يغتال محمد " .

فلما كان مساء تلك الليلة فقد رسول الله ، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلـم يجـدوه ، فجمع أبو طالب فتياناً من بني هاشم وبني المطلب ، ثم قال لهم : " ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم بما فيهم ابن الحنظلية – يعني أبا جهل – فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل .

فقال الفتيان : " نفعل " ، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال ، فقال : " يا زيد أأحسست ابن أخي ؟ " قال : "نعم ، كنت معه آنفا" ، فقال أبو طالب : " لا أدخل بيتـي أبـداً حتى أراه " ، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في البيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون ، فأخبره الخبر ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أب طالب ، فقال : " يا ابن أخي أين كنت ؟ أكنت في خير ؟ " قال : " نعم " ، قال : " أدخل بيتك " ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبـي صـلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والطالبيون ، فقال : " يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به ؟ " قالوا : " لا " وأخبرهم الخبر ، وقال للفتيان : " اكشفوا عما في أيديكم " فكشفوا ، فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة ، فقال : " والله لـو قتلتموه ما أبقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم " ، فانكسر القوم ، وكان أبو جهل أشـدهم انكساراً .

وانفرد أبو طالب برسول الله صلى الله عليه وسلم ينصحه ، خوفاً عليه من غدر قريش وقـال له : " يا ابن أخي لقد رأيت القوم وسمعت ما قالوه فابق على وعلى نفسك ولا تحملني مـا لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك وما يكرهون من قولك " ، فدمعت عينـي رسـول الله وظن أن عمه تاركه ، فقال متأثراً كلمات رائعة شجاعة خلدها التاريخ : " والله يـا عـم لـو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهـره الله أو أهلـك

دونه " . فربت العم على كتفه مطيباً لخاطره معجباً بشجاعته وصموده على مبدئه ومؤكدا له حمايته له ووقوفه معه مهما كلفه الأمر ، وقال : " إمض يا ابن أخي على أمرك فــوالله لــن أسلمك لهم أبداً " . فأعاد أبو طالب دعوته لقومه إلى نصره محمد صــلى الله عليــه وســلم ، فأجابه جميع بني هاشم والمطلب ولم يتخلف عنهم سوى عمه أبو لهب الذي أصر على عداوته له وللإسلام .

وقد نزل في المشركين آنذاك (ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاق) . كما نزل قوله تعالى : (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليمــا حكيما واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) .

واستعرت نار الحرب بين رسول الله والمشركين وتحولت مكة آنذاك إلى أتون نـــار مــستعر أحرقت قلوب الكافرين والمشركين ، وكانت برداً وسلاماً على قلوب عباده المؤمنين الصابرين .

ولقد كان أكثر المؤذين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل فيهم قرآن :

- أم جميل بنت حرب بن أمية ، حمالة الحطب ، التي نزل في حقها سورة (المسد) .
- أمية بن خلف بن وهب بن جمح ، الذي كان إذا رأى رسول الله همزة ولمزه ، فأنزل الله تعالى فيه قوله : (ويل لكل همزة لمزة) .
- العاص بن وائل السهمي ، والد عمرو بن العاص ، والذي كان يسخر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله فيه سورة (الكوثر) ، وقوله تعالى : (إن شانئك هو الأبتر) ، كذلك أنزل الله فيه : (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لآتين مالا وولدا أطلع علــى الغيــب .....) إلى قوله تعالى : (ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً) .

- أبو جهل (عمرو بن هشام المخزومي) ، وكان أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، ونزل فيه قوله تعالى : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فسيبوا الله عدوا بغير علم) وقوله تعالى : (إن شجرة الزقوم ...) .
- عبدالله بن الزبعري السهمي ، وكان ينكر دخول النار من يعبد غير الله ، فنزل فيه قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) وكذلك نزل فيه قوله تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه ...) .
- الأخنسس بن شريق بن عمرو الثقفي ، وقد نزل فيه قوله تعالى : (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) .
- الوليد بن المغيرة ، الذي قال : أينزل القرآن على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي ، سيد ثقيف ، ونحن عظماء القريتين ، فنزل فيه قوله تعالى : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .
- أبي بن خلف بن وهب ، نزل فيه قوله تعالى : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم) .
- عقبة بن أبي معيط ، نزل فيه قوله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً) .
- النضر بن الحارث بن كلده ، وكان يتعقب مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعو الناس ويحدثهم عن ملوك الفرس الأقدمين ، وإدعائه بأن القرآن أساطير إكتتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (وقالوا أساطير الأولين إكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلاً) ،

ونزل فيه قوله وتعالى : (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ونزل فيه : (ويل لكل افاك أثيم ....) .

٥- الهجرة إلى الحبشة وإلى الطائف

استعرت الحرب بين مشركي قريش والمسلمين ، وساءهم ازدياد عدد التابعين لمحمد صلى الله عليه وسلم وثبوتهم على الإسلام وثبوت محمد صلى الله عليه وسلم نفسه وتحديه لقريش ولكل من حالفها من القبائل في حربه وحرب المسلمين . فاشتد أذى قريش للمسلمين وللنبي . وعن ذكر ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذى قومه ، قال ابن إسحاق : " ثم إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالسحر والكهانة والجنون ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لا يستخفي به ، مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم " .

وحاولت قريش إغراء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالماديات وعرض الدنيا ظناً منها أن ذلك يثنيه عن أمر دعوته ويحفظ لهم ديانتهم ومعبوداتهم ، فاجتمع به زعماؤهم من أهل (الملأ) عند ظهر الكعبة يوماً بعد غروب الشمس وعرضوا عليه عرضهم قائلين : " إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا – فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك " . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم

ولا أشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل على كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ، ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم بــه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم " . قالوا " " يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس مــن الناس فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحــد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا ، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنــا هذه الجبال التي ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنها الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث منهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صــدقناك وعرفنــا بــه منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول " .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : " ما بهذا بعثت إليكم من الله ، إنما جــئكم مــن الله بمــا بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فــي الــدنيا والآخــرة وأن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم " قالوا : " فإذا لم تفعل هذا لنــا فخذ لنفسك ، سل ربك بأن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نارك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كمــا تزعم " . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً " . قالوا : " فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك إلى الله إن شاء يفعله بكم فعل " . قالوا : " يا محمد أفما علم ربك أنا ســنجلس

معك ، ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب فيتقدم فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به . إنه قد بلغنا إنه يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك ما محمد وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا " .

وكان (النضر بن الحارث بن كلدة) وهو طبيبي قريش آنذاك ومن شياطينها ، كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد ذهب إلى (الحيرة) بالعراق ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس الساسانيين وأحاديث قوادهم : (رستم) و (أسفنديار) ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله وحذر قومه مما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله مثل قوم عاد وثود ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : " أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه " ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وقوادهم . وقد نزل في النضر هذا ثمان آيات من القرآن يتصل كل ما فيها عما قاله عن أساطير الأولين .

ولما ازداد عدوان قريش على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة ورأى رسول الله عدم مقدرته منع الأذى عنهم ، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وكانت أحب الأرض إليه أن يهاجر إليها . فهاجر إليها عدد من المسلمين ، منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر بنفسه حتى قدموا أرض الحبشة ، خرجوا متسللين سراً ، وكانوا أحد عشر رجلاً ، وكان خروجهم في شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦١٥م) . ثم ازداد عدد المهاجرين إلى الحبشة ، بعد ذلك ، حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلاً وسبع عشرة إمرأة سوى الصبيان ، وكانوا كلهم من بطون قريش . فلما رأت قريش أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين إلى الحبشة قد أمنوا واستقروا بها وحظوا

برعاية مليكها المسيحي وأنهم قد أصابوا داراً وقراراً يدينون فيه بالإسلام بحرية ، جن جنونهم وطاش صوابهم وأصروا على إعادتهم إلى مكة ليأخذوهم أسارى ، ولكنهم فشلوا في ذلك بسبب حماية ملك الحبشة لهم وعدم تسليمهم للرجال الذين أرسلوهم إلى الحبشة لهذه المهمة ، وكان على رأسهم (عمرو بن العاص) ، الذي لم يكن قد أسلم بعد . وأقام المسلمون في بلد (النجاشي) خير قيام إلى السنة السابعة للبعثة ، بينما رجع البعض الآخر إلى مكة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وقد ظل (جعفر بن أبي طالب) باقيا في الحبشة ومعه عدد من المهاجرين ولم يعودوا إلى المدينة إلا يوم فتح المسلمين لخيبر .

وبعد ثلاثة أشهر من هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وفي السنة السادسة للبعثة المحمدية أعز الله الإسلام بدخول رجلين عظيمين من رجال قريش فيه ، وهما : (حمزة بن عبد المطلب) ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و (عمر بن الخطاب) ، رضي الله عنهما . وقد اشتهر كلا الرجلين بالقوة والشجاعة والفروسية والمهابة والإقدام ، وقد بلغ عدد المسلمين بإسلام عمر أربعين رجلاً .

ولما بلغ قريشا ما فعله نجاشي الحبشة مع المسلمين المهاجرين إلى بلده وإكرامه لهم ، كبر ذلك عليهم وغضبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . كذلك لما رأت قريش تزايد عدد الداخلين في الإسلام بعد إسلام عمر بن الخطاب وبداية انتشار الإسلام في القبائل ، ووقوف بني هاشم وبني المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، برغم عدم اعتناق الكثيرين منهم للإسلام وعدم تقبلهم دعوته ، ولكنهم آزروه بدافع العصبية القبلية حمية وعصبية ، اجتمعوا وائتمروا على أن يكتبوا كتابا بينهم يتعاهدون فيه على مقاطعة بني هاشم والمطلب فلا يزاوجوهم ولا يتزوجوا منهم ولا يبيعونهم واو يبتاعوا منهم شيئاً ولا يخالطوهم ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة حتى يسلمون إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم يقتلونه . وكان

هذا الإجراء أشبه بما يعرف اليوم بين الدول بالمقاطعة الاقتصادية والحرب الاقتصادية والحصار الاقتصادي . وكتبت قريش بذلك صحيفة علقتها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . ولما فعلت قريش ذلك انقسم بنو عبد مناف ، آل محمد ، إلى قسمين : القسم الأول وقد ضمن بني هاشم وبني المطلب ، ومسلمهم وكافرهم ، انحازوا إلى سيدهم أبي طالب ودخلوا معه في شعبة واجتمعوا إليه ، وخرج منهم إلى قريش (أبو لهب) حقداً على ابن أخيه ، والقسم الثاني من بني عبد مناف ، وهم بنو نوفل وبني عبد شمس ، فقد انحازوا إلى قريش . وحوصر بنو هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطعت عنهم الميرة والطعام والماء حتى اشتد بهم الجوع والعطش مدة ثلاث سنوات . ولم ينفك هذا الحصار الاقتصادي عن بني هاشم وبني المطلب إلا بعد أن أكلت (الأرضة) الصحيفة ولم تبق منها إلا (اسم الله) ، بعد أن أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي منتصف شهر شوال من السنة العاشرة توفى أبو طالب ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ ابن سبع وثمانين سنة ، وتوفيت السيدة خديجة رضي الله عنها بعده بشهر وخمسة أيام ، وهي يومئذ بنت خمس وستين سنة ، فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بموتهما في هذا العام مصيبتان ، ولذلك عرف ذلك العام (بعام الحزن) . وقد فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم بموت خديجة الزوجة وشريكة الحياة والأم والصاحبة والأخت والحب والحنان ، فقد دام زواجهما خمسا وعشرين عاما كانت خلالها مثال الزوجة المؤمنة الصالحة الصابرة المجاهدة والمتفانية في حب زوجها . وكان موت أبي طالب ابتلاءاً كبيراً

لرسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعه لأن رئاسة بني هاشم صارت من بعده لعمه وعدوه أبي لهب ، بعد أن كانت لناصره ومؤيده والدرع الحامي له .

ولقد ازدادت عداوة قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة عمه أبي طالب بعد أن ظنت أن محمداً صلى الله عليه وسلم بعده صار بلا حماية ، فتفننت في إيقاع ألوان الأذى برسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعه ، فكانت تحرض سفهاءها على حثو التراب في وجهه صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه وهو قائم يصلي عند الكعبة ، وإلقاء مخلفات الحيوانات المذبوحة عليه وهو ساجد صلاته ، وطرحهم الشوك على عتبة بابه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك : " ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب " .

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم إصرار أشراف مكة على الكفر وتصديهم لدعوته وصدهم وفود القبائل عنه واضطهادهم للفقراء والمستضعفين من اتباعه ، خرج إلى مدينة (الطائف) ، ثاني مدن الحجاز الكبرى وتوأمه مكة ، وهي تبعد عنها حوالي تسعون كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي منها ، خرج إليها يلتمس النصرة من سادتها (بني ثقيف) و (هوازن) والمنعة بهم من قومه برجاء أن يفتح الله قلوبهم للإسلام . فخرج معه مولاه (زيد بن حارثة) ، ومكثا في الطائف عشرة أيام بعد رحلة شاقة على الأقدام عبر وديان وجبال حالكة السواد . وما أن وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حتى عمد إلى أشراف ثقيف بها ، وهم إخوة ثلاثة : (عبد ياليل بن عمرو بن عمير) و(مسعود) و(حبيب) ، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه ، فلم يقبلوا دعوته وأساءوا الحديث معه مجاملة منهم لقريش .

ولقد كانت لقريش تعاملات مالية وتجارية مع أهل الطائف ، ولذلك كـان أشـراف الطـائف حريصين على استمرار هذه العلاقات الطيبة معها . وكان أثرياء قريش أمثال عتبة بن ربيعة وأخوة شيبة قد استغلوا أموالهم في الطائف فاشتروا الأراضي الزراعية فيها واسـتثمروها ، وبنوا لهم منازل هناك للاصطياف فيها ، وحاولوا، جهد إمكانهم ، ربط الطائف بمكة في كـل شيء ، وتمكن أثرياء قريش من التغلغل في الطائف وبسط سلطانهم عليها بـإقراض سـادتها الأموال بالربا وبشراء الأرض بمساحات كبيرة فبسطوا بذلك سلطانهم عليها ، وأقاموا لهم بها مشروعات اقتصادية خاصة ومشتركة . وهكذا استغل أذكياء مكة هذا البلد الهام وحولوه إلـى مكان في حكم التابع لهم . وقد كان أهد الطائف على الوثنية مثل قريش ، يعبدون (اللات) ، فما كان لهم أن يخالفوا قريشاً في مجافاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم قبولها لدعوتهم حين جاء يطرق بابهم حين أغلقت قريش بابها في وجهه .

ولما يئس رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشراف ثقيف قام من عندهم ، وقال لهـم : " إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني " ، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومـه رفـضهم لدعوته فيثيرهم ذلك عليه أكثر مما هم فيه . لكن ثقيف لم تفعل ما طلبه منهم ، فـأغروا بـه سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويقذفونه بالأحجار ، حتى ألجأوه إلى حديثة لابني ربيعـة ، عتبـة وشيبة ، وقد أدمت الأحجار قديمه الشريفتين وزيديقية بنفسه حتى شج رأسه . وعمد رسـول الله صلى الله عليه وسلم إلى ظل شجرة عنب فجلس تحتها ، وابني ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف .

وهنا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء يشكو حاله لربه ودعاه دعاءاً ارتجت له السماوات والأرض بقوله : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى عدو بعيد يتجهمني أم إلـى

عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقيت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل على سخطك . لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك " .

ووسط سحابة الحزن والأسى التي مرت في سماء حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد عودته من الطائف ، أراد الله تعالى أن يروح عن حبيبه ورسوله وأن يزيد من تثبيت عزيمته والتأكيد على تأييده له ونصره ، كانت رحلة الإسراء والمعراج ، التي أراه الله فيها من آياته الكبرى الشيء الكثير . وقد وقعت هذه الرحلة السماوية في الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب قب لالهجرة إلى المدينة بعام . وقد أورد القرآن الكريم قصة الإسراء في سورة (الإسراء) وقصة المعراج في سورة (النجم) . وفي هذه الليلة فرضت الصلاة على المسلمين ، خمسة في الأصل وخمسون في الأجر تكريماً من الله لأمة حبيبه ومصطفاه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٦- الهجرة إلى المدينة

وحياة الرسول صلى الله وعليه وسلم بها حتى الوفاة

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفياً ، ثم أعلن في الرابعة فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي المواسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم في أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه واعداً إياهم بالجنة ونعيمها ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يستجيب له ، حتى أنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول : " يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة " . وأبو لهب وراءه يقول : " لاتطيعوه فإنه

صابئ كاذب " . فيردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الرد ويؤذونه ويقولون له : " إن أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك " ، ويكلمونه ويجادلونه ويكلمهم ويدعوهم إلى الله . واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرض نفسه على كل قادم إلى مكة من العرب له اسم وشرف ، فسدوا آذانهم لدعوته وصموا وعموا . وقد حاولت بعض القبائل أن تساومه على أن تكون السيادة لها على العرب إن هو انتصر بهم ، ولكنه لم يستجب لمساومتهم التي تبحث فقط عن المصلحة المادية ، ولم يكن لديها الباعث الإيماني والروحي لتصديق دعوته ، فانصرفوا عنه وانصرف عنهم غير آسف .

وفي ذلك الوقت تطلعت عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وجهة أخرى وملاذ يبعد شمال غربي مكة بنحو ثلثمائة ميل ، وكان هذا الملاذ مدينة (يثرب) ، وسأل الله تعالى أن يجعل له النصرة ولدينه على يد أهل هذه المدينة . ويثرب ، مدينة قديمة ورد ذكرها في كتاب العهد القديم (التوراة) بهذا الاسم الذي عرفت به في الجاهلية ، وقيل أنه نسبة إلى يثرب ، أحد أحفاد سام بن نوح عليه السلام . ويذكر بعض أهل الأخبار أن أقدم من سكن يثرب في التاريخ القديم قوم يقال لهم (فالج) ، ثم سكنها (العماليق) ، ثم سكنها اليهود ، النازحين من فلسطين ، في مواضع العماليق بعد أن أجلوهم عنها . ونزل علىاليهود بعض قبائل العرب اليمنية وسكنوا معهم ، وكانوا من (الأوس والخزرج) ، وهم آخر هذه القبائل قدوما عليها على أثر حادث سيل العرم وانهيار سد مأرب . وكان اليهود قوة في يثرب ، يزرعون الأرض ويمتلكون النخيل ويجمعون الأموال ويتعاملون الربا ، فمكث الأوس والخزرج معهم أمداً وعقدوا معهم حلفا وجوارا يأمن به بعضهم بعضا ويمتنعون به عمن سواهم . فلم يزالوا على ذلك زمنا طويلا حتى نقض اليهود هذا الحلف والجوار وتسلطوا وحدهم على يثرب

واضطهدوا العرب ، فاستعان الأوس والخزرج بقبائل عربية أخرى على اليهـود فغلبـوهم ، فصارت الغلبة لعرب الأوس والخزرج على المدينة بعد ذلك .

وكان أهل يثرب ، مثل غيرهم من سائر العرب في الجاهلية وثنيين متخذين لهم أصناماً جعلوا له بيوتا يتقربون إليها فيها ، وكان معبودهم الأكبر (منات) ، وكانوا يحجون إليه ، كما كانت لهم محجات إلى أماكن كانت على مسافة من مدينتهم بها أصنام كانوا يعبدونها ويقدمون لهـا القرابين . وتنقسم يثرب إلى شعاب ، تسكن بطون الأوس في عدد منها ، كذلك بطون الخزرج ، واليهود . وفي تلك الشعاب دور مبينة بالآجر واللبن وبعضها يتكون من طـابقين . وفـي المدينة بساتين صغيرة وبها آبار يسقون منها ويشربون ، وقد احتقر اليهود بعض تلك الآبـار وتملكوها وكانوا يبيعون مياهها بالدلاء لمن يريد . ومن آبارها : بئـر (أرومـة) وبئـر (ذروان) وغيرها .

والطبيعة حول يثرب طبيعة قاسية ، فالوديان والجبال الصماء تحيط بها من جهاتها الأربع ، ففي شمالها يقع جبل (أحد) الشهير ، ثم جبل سلع ، وفي الجنوب الغربي يقع جبل (عير) ، وبها أودية : (بطحان) و(رانوناء) و(العقيق) و(مهزور) و(مذينب) . ولم يكن ليثرب سور يحيط بها ، وكانت لأغنياء العرب واليهود بالمدينة حصون عرفت (بالآطام) يتحصنون بها في العدو .

والأوس والخزرج أبناء عم ، إلا أنه برغم صلة الرحم بينهما وقعـت بينهمـا حـروب فـي الجاهلية أشعل نارها اليهود ، وهلك فيها من الطرفين خلق كثير . وكان (يوم بعاث) أشـد هذه الحروب وآخرها ، وقد وقعت هذه الحروب على أرض بعاث التي تبعد مسيرة يومين من المدينة سنة ٦١٧ للميلاد . وقد ساعدت بعض القبائل كلا الطرفين في هذه الحرب ، فساعدت أشجع من غطفان ، وجهينة من قضاعة الخزرج ، وساعدت مزينـة ويهـود بنـي قريظـة

والنضير الأوس في هذه الحرب مما أدى إلى انتصارها على الخزرج الذين لم يستسلموا لهذه الهزيمة وباتوا يعدون العدة لأخذ الثأر .

وكان اليهود ، الذين سكنوا يثرب ، قد وفدوا إليها من فلسطين خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين ، هربا من بطش دولة الروم بهم ، بعد أن أجلاهم عنها الإمبراطور الروماني (تيتوس) سنة ٧٠ ميلادية ، بعد أن دمر مدينة أورشليم (القدس) وأحرق (هيكل) اليهود القدس بها . كذلك بعد قضاء الإمبراطور الروماني (هادريان) على من تبقى منهم في فلسطين سنة ١٣٥ ميلادية . وكان ضمن الهاربين إلى جزيرة العرب من اليهود ممن سكان يثرب ثلاث قبائل هي : بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة . وقد سكن بنو قينقاع وادي (بطحان) بداخل المدينة ، وسكن بنو النضير منطقة (العوالي) على وادي مذينب ، جنوب شرقي المدينة ، وسكن بنو قريظة وادي (مهزور) . وقد انتقى اليهود أراضي يثرب الخصبة وسكنوا فيها وزرعوها وعلى الخصوص نخيلاً . وقام اليهود ببناء حصون وقلاع لهم في مناطق استيطانهم بالمدينة وخارجها ، على عادتهم في بناء نظام (الجيتو) في أي موقع ينزلون فيه ، ومن هذه الحصون : حصن (أوطاس) وحصن (ناعم) وحصن (القموص) .

وكان أهل يثرب يفدون إلى مكة للحج والتجارة في موسم الحج ، وفي هذه المرة التي أراد الله تعالى لهم الهداية ، تحادث رسول الله معهم ووجد فيهم ضالته ، وجد من يستمع لكلامه وينصت له عند مكان يبعد ميلين عن مكة بينها وبين (منى) يعرف (بالعقبة) ، وكانوا ستة نفر من الخزرج ، أراد الله بهم خيراً ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا . قد قال بعضهم لبعض : " يا قوم ن إنكم والله لتعلمون أنه النبي الحق الذي توعدكم به يهود ، فلا تضيعوا الفرصة من أيديكم ولا يسبقوكم إليه " . فأجاب هؤلاء النفر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما دعاهم

إليه ، وقالوا له : " يا رسول الله إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الإسلام يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك " . ثم انصرفوا ، وهم على الإسلام ، بعد أن تواعدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يلتقوا به في مكة العام القادم .

وفي العام التالي (٦٢١ ميلادية) وافي الموسم في مكة من أهل يثرب اثنا عشر رجلاً فالتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه عند العقبة (بيعة العقبة الأولى) ، وكان بين هؤلاء عشرة رجال من الخزرج واثنان من الأوس . وقد بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم البيعة التي عرفت (ببيعة النساء) ، وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب . وقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، عند انصرافهم (مصعب بن عمير) ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ، وقد واعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم باللقاء عند العقبة في العام التالي .

وتم في العام التالي لقاء وفد يثرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة حيث تمت بينه وبينهم (بيعة العقبة الكبرى) ، وكان عدد المجتمعين برسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المرة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من نسائهم لمبايعته ، وكانت إحدى الإمرأتين هي : أم عمارة (نسيبة بنت كعب الأنصارية) من نساء بني مازن من بني النجار ، وكانت الثانية هي : أم منيع (أسماء بنت عمرو بن عدى) من بني سلمة من بني النجار . ووكان عدد الأوس من بينهم أحد عشر رجلاً ، وعدد الخزرج اثنان وستون رجلا ، واجتمعوا في الشعب ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له . فلما جلس كان العباس أول المتكلمين ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا عليهم القرآن ، ودعا إلى الله ورغب

في الإسلام ، ثم قال : " أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم " ، فأجابه (البراء بن معرور) بالإيمان والتصديق ، فأخذ بيده ، وقال : " نعم والـذي بعثـك بـالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحـروب وأهـل الحلقـة ورثناها كابراً عن كابر " . وقال (أبو الهيثم بن التيهان) : " يا رسول الله إن بيننـا وبـين الرجال حبالاً ، وإنا قاطعوها – يعني اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهـرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ " فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ن ثم قال : " بـل الـدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم " . ثم قال ابـن معرور : " أبسط يدك يا رسول الله نبايعك " ، فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ، فكان ابن معرور أول من ضرب صلى الله عليه وسلم على يده ، ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه . وتعرف هذه البيعة (ببيعة الحرب) ، واختار رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنى عشر نقيباً منهم ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وقال لهم : " أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل قومي " .

ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكـة من المسلمين ، بالخرزج إلى المدينة والهجرة إليها واللحاق بـإخوانهم الأنـصار ، فخرجـوا جماعة وراء جماعة ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يـأذن لـه ربـه بالخرزج من مكة والهجرة إلى المدينة .

ولما رأى المشركون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حملوا الذراري والأطفال إلى يثرب ، وعرفوا أنها دار منعه وقوم أهل حلقة وبأس ، فخافوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تخوفوا منه ، فاجمعوا علـى قتلـه .

واتفقوا على طريقة القتل بأن يختار من كل قبلية فتى شابا جليداً ويعطى كل منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه ويضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ، وإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمـــه فـــي القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد منافس على حرب كل القبائل . وأعطتهم الـــسيوف الحـــادة لينفذوا ما خططوا له ، ولكن الله حفظ نبيه فخرج من بينهم وهم نيام بعد أن نام في فراشـــهه على بن أبي طالب وتغطى ببرده الأخضر الحضرمي . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أبي بكر بالهاجرة سراً ، وأخبره بالإذن بالهجرة وبصحبته له . وكان أبو بكر قـــد جهـــز راحلتين قويتين للرحلة ، كما استأجر رجلاً من بني بكر ، خبيراً بالطريق يدعي (عبدالله بن أريقط الليثي) ليدلهما على الطريق ويقود راحلتيهما . ومضى الرسول صلى الله عليه وســـلم ورفيقه إلى (غار ثور) ، جنوبي مكة ، ومكثا به ثلاث ليال .

وبعد انقضاء الأيام الثلاثة بدأت الرحلة إلى يثرب . وكان خروج رسول الله صلى الله عليـــه وسلم من مكة لهلال ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة للبعثة ، ووصوله إلى يثرب يوم الثاني عشر منه ، وعند وصول الركب ، تزاحمت القبائل تمسك بخطام الراحلتين ، كل منهما تريـــد نيل شرف نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ، فانطلقت الناقة حتى أتت عنـــد دار من دور بني مالك من بني النجار ، أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبركـــت مكـــان باب مسجد رسول الله الرئيسي الموجود اليوم . وكان هذا المكان (مربداً) ، يجفف فيه التمر ، ملكاً لغلامين من بني النجار وهما : سهل وسهيل ابني عمرو . واشترى رسول الله صـــلى الله عليه وسلم المكان منهما وأمر أن يبني مسجده هناك ومـــسكنه . وحتـــى يبنـــي المـــسكن والمسجد ، نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيفاً على قريب له من بني النجار ، هـــو (أبو أيوب خالد بن زيد الخزرجي الأنصاري) في الطابق السفلي من داره .

وبمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ، صارت هذه المدينة عاصمة الدولة الإسلامية الجديدة التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند استقراره بها . ويحول رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم يثرب إلى اسم (المدينة المنورة) ، وهي المدينة التي خرجت من جنباتها مشاعل النور لتبدد به ظلمات الشرك ولتحطم أصنام وأوثان الكفر ، ولتنشر راية لا غله إلا الله عالية خفاقة في الآفاق إلى يوم الحساب .

وبعد أن فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بناء مسجده ، الذي اتخذه مركزاً لنشر الدعوة وحكم الدولة ومقر قيادتها وتصريف أمورها ، قام بوضع البنية البشرية الأساسية لتلك الدولة بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وبموادعة يهود المدينة بكتاب (الصحيفة) ، وتنظيم الجبهة الداخلية ، وصار على استعداد لمجابهة أي عدوان تشنه قريش على مكة ، وهو يعلم أن قريشاً وحلفاءها لن يتركوه يأمن بدينه من يثرب بعد أن نجح في الإفلات من قبضه يدها بهجرته من مكة .

ولقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسس للدولة الجديدة والنظم ، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والمعاملات بما نزل عليه من قرآن ، وما اجتهد فيه برأيه فيما لم ينزل به قرآن ، وما استشار فيه أصحابه رضوان الله عليهم . وقد واجه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو القائد الأعلى ، مع جماعته في الدولة الجديدة كل المشاكل التي تقابل بناة الدولة وقام بحلها على أساس من العدالة والمساواة والمحبة والحرية . هذا ولم يقتصر بناء دولة الإسلام على الحجاز وجزيرة العرب بل شمل إطارها السياسي كل العالم ، لأن الإسلام لم يأت قاصراً على العرب وحدهم ، بل جاء لكل العالم مشرقة ومغربه .

وفي المدينة ، وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسه في وضع قوي يسمح له بإقامة دولة الإسلام بعد أن تراضت عناصرها ، التي كانت تتصارع ، بالأمس القريب ، على السيادة

فيها . وفيها أصبح محمد صلى الله عليه وسلم قائد جماعة المسلمين ورئيسهم . وقد نمت هذه الجماعة بالتدريج ، دينياً وسياسياً ، وصار لها جيش قوى مستقل وإدارة واعية وموارد مالية كافية . وبعد الهجرة بخمس سنوات فقط ، صارت هذه الدولة ، دولة معترف بهـا مـن كـل جيرانها بعد أن أيد الله نبيه بالنصر من عنده . وصار محمد صلى الله عليه وسلم رائد هـذه الأمة وإمامها وهاديها وراعيها وصاحب الكلمة العليا فيها ، وتحول راعي البهم إلى راعـي للأمم .

وكان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بحكم رئاسته لدولة الإسلام ، هو الذي يقرر الحـرب ويقرر السلم ، وهو الذي يختار القواد للمعارك أو يكون هو القائد للغزوات بنفسه . وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم محارباً شجاعاً وقائداً حربياً ماهراً ، كما عرف بأنه سياسـي قدير محنك ، فضلا من كونه الهادي والبشير والنذير والسراج المنير . ولقد وضع التـشريع الإسلامي لحماية أفراد مجتمع الإسلام ولإقرار العدالة والرحمة بين بني البشر ، والحفاظ على حقوق الناس وبيان ما عليهم من واجبات ، ولرفع الظلم عن العباد . فوضعت العقوبات التـي تقابل الجرائم ، كذلك نظم هذا التشريع الحياة الأسرية فيما يتصل بالزواج والطلاق وحقـوق الزوجية ومكانة المرأة والميراث . كذلك نظم المعاملات المالية وحرم الربا وحرم الغش فـي الكيل والتطفيف في الميزان ، وحرم احتكار السلع والسمسرة والمضاربة ، وغير ذلـك مـن الأمور التي تؤدي إلى الاستغلال والابتزاز . كما وضع القوانين التي تحرم الخمر والميـسر وارتكاب الموبقات أيا كان نوعها ، وبين الحدود والقصاص . وقد جاءت تلـك التـشريعات لتنظم للبشرية حياتها وتحقق للإنسانية كرامتها وعزتها .

وفي المجتمع الجديد الذي قامت فيه دولة الإسلام في المدينة ، ظن بعض المسلمين أنهـم قـد حصلوا على الراحة التامة بعد المؤاخاة التي تمت والموادعة التي حصلت مع اليهـود ومـع

الوسط المحيط بدولة الإسلام ، ثم مع العالم الخارجي القائم آنذاك ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف أنه سيخوض معارك كثيرة على عدة جبهات ، بعضها داخلية في المدينة ذاتها ، وبعضها خارجية مع قريش وبقية القبائل العربية الجاهلية ، ثم مع الدول الكبرى القائمة يومئذ في الخارج . على الجبهة الداخلية أيقن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيحارب اليهود الذين ساءهم أن يكون نبي آخر الزمان من العرب وليس من بني إسرائيل ، كذلك أيقن عليه السلام أنه سيحارب على الجبهة الداخلية المنافقين من العرب ، المتطلعين للقيادة والسيادة ، وهم ليسوا أهلا لها وعلى رأسهم النفاق عبدالله بن أبي بن أبي سلول . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيحارب على الجبهة الداخلية الأعراب الذين في المدينة وما حولها ، الذين لا يعرفون من الحق إلا ما يخدم أغراضهم ويتفق مع مصالحهم . أما الجبهة الخارجية فكان من الضروري لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصطدم بقوى الشرك في الدول الكبرى ، التي لن تتقبل ، بأي وضع من الأوضاع ، أن يتسيد العرب عليها ، وأن تتغير عقيدتهم المسيحية وديانتهم الوثنية إلى الإسلام ، دين العرب .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متأكداً من أن أول صدام لدولته سيكون مع قريش ، عدو المسلمين الأول ، والتي لن يهدأ لها بال إلا بالقضاء على الإسلام والتخلص من داعيته رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد شرع القتال للمسلمين وفرض الجهاد عليهم في السنة الثانية للهجرة ، وذلك بنزول (الآية ٤٠ من سورة الحج) في قوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) . وتتابع الآيات القرآنية التي تحث المسلمين على الجهاد وتبين

أخلاقيات الحرب من الإسلام ، وتؤكد بأن الإسلام لم يكن دين قتال وحـــرب لكـــن الحـــرب فرضت على المسلمين . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم رجلاُ مقاتلا يطلب الحرب لذاتها أو يطلبها ولا مندوحة عنها ، ولكنه مع هذا ، كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة . يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمران ، ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصـــابة الحـــساب وإصـــابة الاستشارة .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيماً في الحرب مقداماً كما كان عظيماً في الـــسلم ، وقد عرف عنه صحابته ومن قاتل معه من المسلمين وقاتله من المشركين الشجاعة والإقـــدام وحب الجهاد وحسن القيادة ودقة التنظيم للجيوش . وقد وقعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم بين ثمانية وثلاثين غزوة وسرية ، وقد قاد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الغزوات بنفسه وأناب عنه في السرايا كبار قواده . وقد كانت غزوة بدر هي التجربة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم في إدارة المعارك الكبيرة في السنة الثانية للهجرة ، وكانت غـــزوة (تبـــوك) آخر هذه الغزوات في سنة تسع للهجرة . وقد انتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كـــل هذه الغزوات ، ما عدا غزوة أحد التي انتصر فيها أولاً ، ثم وقعت الهزيمة للمسلمين ، بسبب مخالفة بعض المقاتلين لأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت درساً قاسياً للمسلمين استفادوا منه في غزاوتهم التي تلتها ، وانتهت جميعها بالنصر الحاسم للمسلمين . ولا يتـــسع المجال في هذا البحث للحديث عن تفاصيل الغزوات والسرايا التي خاضها المسلمون وحققوا فيها الانتصار ، ذلك لاقتصار مجال البحث على جوانب ومظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، نبي الرحمة .

وفي مطلع ذي القعدة من السنة العاشرة لهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجهز رسـول الله صلى الله عليه وسلم للحج وأمر الناس بالجهاز له ، وخرج إلـى الحـج يـوم الخـامس والعشرين من هذا الشهر ، وهي التي يسميها الناس (بحجة الوداع) ، و(حجة الإسـلام) . وقد أدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مناسك الحج وعلم الناس سنن حجهم ، وهو يكـرر عليهم قوله : " أيها الناس خذوا عني مناسسكم فلعلكم لا تلقوني بعد عامكم هذا " ، وقد كانـت بالفعل حجة الوداع لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى بعدها بثلاثة أشهر وانتقل إلـى الرفيق الأعلى . وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبته ، المعروفة (بخطبة الوداع) ، خطبها يوم عرفة من فوق (جبل الرحمة) ، وقد أنزل الله الوحي على رسوله وقتها مبشراً بإتمام الدين وكماله بقوله تعالى في سورة المائدة (اليوم أكملت لكم ديـنكم وأتممـت علـيكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) . وقد قال صلى الله عليه وسلم في خطبته هذه :

" الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له ، واشهد ألا إله إلا الله وحـده لا شـريك لـه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقـاكم بعـد عامي هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس أوصيكم بتقوى الله وأحثكم على طاعتـه واسـتفتح بالذي هو خير . أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلتقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمـالكم ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليهـا ، وإن ربـا الجاهلية موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا ، وإن أول ربا أبدأ به هو ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وهو ربا موضوع كله . وأن كـل دم

في الجاهلية موضوع وإن أول دمائكم أضع دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد ، أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه رضى أن يطاع سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس ، إنما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أما بعد ، أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبية فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسم أخ للمسلم وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله وسنة نبيه ، ألا قد بلغت ؟ اللهم فاشهد . أيها الناس ، إن ربكم واحد ،

كلكم لآدم وآدم من تراب وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ولي لعربـــي علـــى عجمـــي فـــضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد " .

فقال الناس جميعاً : " اللهم نعم " ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : فليبلـــغ الـــشاهد الغائب ، أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصـــية ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجز . من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منـــه صـــرف ولا عـــدل ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " .

وبعد أن أدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مناسك الحج ، واقام بمكة في حجته هذه عشرة أيام ، قفل راجعاً إلى المدينة ، وأقام بقية ذي الحجة والمحرم وصفر وفي أول شـــهر ربيـــع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة ، بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم شكواه من مرضه بحمى أصابت رأسه الشريف ، سببت وجعه الذي قبض فيه . واستمر مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة اثنى عشر يوماً ، ولما كان يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول انتقـــل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى في ضحى هذا اليوم وعمره ثلاث وستون عاماً ، ودفن في حجرة السيدة عائشة حيث قبره الشريف الآن ، ووارى التراب أحب الأحباب ، واحتوى باطن الأرض خير خلق الله على الأرض ، وأعظم من وطأها ومشى على سطحها محمد الأمين رحمة الله للبشر أجمعين .

٧- شمائل النبي محمد صلى الله عليه وسلم

الإنسان الكامل

إن الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة ، وهي المسماة بمكارم الأخـــلاق وطيب الشمائل فجميعها كانت خلق المصطفى عليه الــسلام ، علـــى الانتهـــاء فـــي كمالهـــا والاعتدال في غايتها ، حتى أثنى عليه رب العالمين الذي اصطفاه وطهره وفضله على سائر العباد وأفرده بقوله عنه (وإنك لعلي خلق عظيم) . إنها شهادة من الخالق البـــائ المــصور الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وخلق محمداً في أحسن تقويم وجعل منه الإنسان الكامــل الذي جمع كل صفات الكمال وكل تمام الخلال . سئلت السيدة عائلة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : " كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه " . لقد تميز محمد صلى الله عليه وسلم بالخلق الرفيع واتصف بالكمال ، فكان أحسن الناس خلقاً وأكملهم مزايا وأجملهم صفات . ولقد بعثه الله تعالى ليكون المثل الأعلى والقـــدوة الخالـــصة لعباده وليتمم بينهم مكارم الأخلاق . لقد كان صلى الله عليه وسلم ذلك التأدب الرباني السامي والعالي كما كانت لإخوانه السابقين من الأنبياء ، جبلة خلقوا عليها تغذيها وتنميها نفحـــات الله النورانية وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا ، باصطفاء الله لهـــم ، درجة النبوة التي هي أسمى درجة يصل إليه إنسان .

ومن الآداب التي أدب بها رب العالمين نبيه محمد ، الإنسان الكامل ، صلى الله عليه وســـلم : الحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على ما يكره مع شدة الإيمان ومتانة الاعتقـــاد . وقد تضافرت وتواترت على اتصافه صلى الله عليه وسلم بنهاية هذه الأوصاف ، وما خيـــر محمد في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، وما انتقم لنفسه في أمر تنتهـــك فيـــه

حرمة الله فينتقم لله لا لنفسه . كان محمد دائم الحب للخير صلى الله عليه وسلم حتى لأعدائه ، وكان دائم الصفح والتسامح مع أعدائه ، دائم الدعاء لهم بالخير والهداية حتى لأولئك الذين آذوه منهم ، ودائم القول في دعائه لهم : " اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون " . لقد عفا عن قومه يوم فتح مكة ، أولئك القوم الذين آذوه وطردوه وفعلوا معه ما فعلوا ، وقد توقعوا العفو منه لما عرفوه عنه من حبه للعفو ، وصدقوا فيما توقعوه حين سألهم : " ما ظنكم أني فاعل بكم " ، فقالوا في صوت واحد : " أخ كريم وابن أخ كريم " ، فقال لهم : " تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء " ، لقد كان في إمكانه أن ينتقم منهم وأن يجازيهم بمثل ما فعلوا معه ، لكن الروح السمحة والقلب الكبير لم يعرف الحقد ولا الغل ولا الكراهية وإنما اتسع حبه ليشمل الجميع ، العدو والحبيب . لقد روى الرواة عن محمد صلى الله عليه وسلم ، الإنسان الكامل ، أنه ما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما ضرب خادماً ولا امرأة ولا جارية ولا حتى دابة . كان يعامل خدمه على أنهم سادة ، فلقد أحسن إلى مولاه زيد بن حارثة وأحسن لأبنه أسامة بن زيد ، ولقد أعتق زيداً ورفع من منزلته إلى منزلة الأسياد بتزويجه من ابنة عمته الشريفة القرشية (زينب بنت جحش) . وولى أسامة بن زيد قيادة جيش الشام ، وهو دون العشرين ، وجعله أميراً على أكابر الصحابة المشاركين في الحملة على الشام ضد الروم . وحدث عنه خادمة (أنس بن مالك) بأنه لم يسئ إليه قط ولا بكلمة واحدة أثناء خدمته له طيلة حياته . وكان رحمته صلى الله عليه وسلم بعبيد غيره كرحمته بعبيده ، فكان يجاملهم ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافئ عليها ويلبي دعوتهم إذا دعوه إلى طعام ويوصى بهم أسيادهم خيراً ، قائلاً : " هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفهوهم ما يغلبهم فإن كلفتوهم فأعينوهم واتقوا الله في الضعيفين النساء والرقيق " .

وكان محمد أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون في شهر رمضان ، وكان كـذلك أشـجع الشجعان ، حضر المواقف الصعبة ونازل نزال الأبطال وتحدى قريشاً وهو لا يملك من قـوة إلا إيمانه بربه وصدقه دعوته . كان شريفاً في قتاله ولم يكن غداراً ولا خوان ، وكـان فـي قتاله أقرب الناس للعدو لا خواف ولا هياب رغم علمه باستهداف العدو له . ظهر باسه يـوم أحد ، ويوم الخندق ، ويوم حنين ، وواجه الموت بثبات ، وقاد الجيـوش ووضـع الخطـط وأحرز أروع الانتصارات . كان عليه الصلاة والسلام في طليعة رجاله حين يحتدم وطـيس القتال ، وكان إذا حمى البأس ، كان المقاتلون من رجاله يتقون به ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . لقد شارك عليه الصلاة والسلام في جميع الغزوات وقادها بنفسه ووضع خطـط القتال فيها فأظهر في ذلك براعة لم تعرف عن أشهر القادة العسكريين طوال التاريخ .

لقد جمع محمد صلى الله عليه وسلم الصفات الطيبة كلها لتجعل منه الإنسان الكامل الـذي لا تنقصه خلة ولا تقلل من شأنه نقيصة ، فهو رجل لا يشاركه رجل آخر في صفاته ومقوماتـه ولا يدانيه غيره في مناقبه الفضلى التي هيأته لتلك الرسالة الروحية التي كان العالم بأسره في انتظارها . فهو نبيل عريق النسب ، فقير وليس بالغنى المترف الذي يطغيـه بـأس النـبلاء والأغنياء ، يتيم بين رحماء ، خبير بكل ضروب العيش في البادية والحاضرة ، على صـلة بالدنيا التي أحاطت بقومه ، أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان كان ينتظر رسـالته وبعثه . ذلك محمد صلى الله عليه وسلم ، فلقد أعدته فطرته وصنع الله له للرسـالة العالميـة أكمل الإعداد .

كان محمد صلى الله عليه وسلم مستكملاً للصفات التي لا غنى عنها في إنجاح كـل رسـالة عظيمة من رسالات التاريخ ، كانت له فصاحة اللسان وبيان اللغة ، وكانت له القـدرة علـى

جمع الثقة وتأليف القلوب ، وكانت له قوة الإيمان بالله وبدعوته وغيرته البالغة على نجاح هذه الدعوة .

نجح محمد صلى الله عليه وسلم في دعواه لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لهــا الحــوادث ، وقام بها نبي ورسول داع صنع على عين ربه وشمل برعايته وعنايته . فلا حاجــة لمحمــد صلى الله عليه وسلم بالخوارق ولا المعجزات التي ينكرها العقل او العلل التي يلتوي بها ذوو الأهواء ، فهي دعوة واضحة كالشمس لكل من له عين يبصر بها ، وهي أقوم ســبيل لمــن استقام وهداه الله إليها .

كان محمد صلى الله عليه وسلم اشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء ، ولــم يكــن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخابا في الأسواق . وكان أوسع الناس صدراً واصدقهم قولاً وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وكان أشد الناس تواضعاً ، رغم ما أوتى من جلال القــدر وعظــم المكانة والشرف ، رقيق القلب ، مرهف الحس . ولقد روى أه أتى إليه رجل فارتعد مهابــة منه ، فقال له : " هون عليك يا أخا العرب ، فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قــريش كانت تأكل القديد " . وكان دائم القول : " إنما أنا عبد آكل كما يأكل لعبد وأجلس كما يجلــس العبد " . وكان يقول للناس : " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله " . ولما دخل محمد صلى الله عليه وسلم مكة فاتحــاً دخلهــا علــى ناقتــه (القصواء) مطأطئاً لرأسه حتى كادت تمس قادمته تواضعاً وشكراً لله تعالى .

كان عليه الصلاة والسلام دائم التفقد لأصحابه ، دائم السؤال عنهم إذا ما غاب عنه أحد منهم ، وكان يفرح لفرحهم ويأسى لحزنهم ، وكان يعطي كل جلسائه نصيبه حتى أن جليسة ليحسب أن لا أحد أكرم عليه منه . من جالسه أو قاربه لحاجة اصطبر عليه حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول . وقد وسع الناس بسطه وخلقــه

حتى صار أبا لهم وصاروا هم أبناءه . كان عليه الصلاة والسلام دائم البشر ، هاشاً باشــاً ، سهل الخلق ن لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ وقد نفى الله عنه ذلك بقوله : (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يجيب من دعاه ، ويقبل الهدية ممن هاداه ، وكـــان يمـــازح أصحابه بغير خروج ، ويلاعب صبيانهم ويحنو عليهم ، ويجيب دعوة من دعـــاه ، ويعـــود المريض ويحسن للجار ، ويقبل عذر المعتذر وأسف المسيء . وكان يبدأ من لقيه بالـــسلام ، ويبدأ بالمصافحة ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر . وكان يكرم من ديخـــل عليه ويفسح له مكاناً إلى جواره إذا أراد ذلك ، يحترم الكبير والـــصغير ، ويكنـــي أصـــحابه ويدعوهم بأحب الأسماء إليهم تكرمه لهم . يعطي أذنه لمن يحدثه ولا يظهر الانصراف عنـــه أو الضجر منه ولا يقطع على أحد حديثه . كان عليه الصلاة والسلام زائد الحنان ، يتألم لبكاء الصغير ولمعاناة الحيوان ويرق لضعف المسن والعاجز والمعوق .

كان محمد صلى الله عليه وسلم أوقر لناس في مجلسه ، وكان كثير الصمت ، فصل في الكلام ، لا يقول إلا صدقاً ولا ينطق إلا حقاً . كان زاهداً في لدنيا ، متقللاً مـــن متاعهـــا ، مفارقـــاً لنعيمها ورفاهيتها . كان دائم الخوف من الله والمراقبة لربه ، وكان كثير التهجد بالليل ويصلي حتى تتورم قدماه ، فلما قيل له : " لم كل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تـــأخر ؟ " فيقول : (أفلا أكون عبداً شكوراً) .

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم بحق الإنسان العظيم ، العظيم في كل شيء وكل ميـــزان ، عظيم في ميزان الدين ، وعظيم في ميزان العلم ، وعظيم في ميزان الشعور ، وعظيم كبشر وإنسان . وإن ما قدمه محمد صلى الله عليه وسلم للبشرية لكاف كل الكفاية لتخويلـــه المكـــان الأسمى من التعظيم والدرجة العليا من الثناء والتكريم . إنه نقل الناس من عبـــادة الأصـــنام

والأوثان إلى عبادة الله الواحد الديان ، نقلهم من الشركة والوثنية إلى الحنيفية والوحدانيـــة ، ونقل العالم كله من ركود إلى حركة ، ومن فوضى إلى نظام ، ومن ظلام إلى نـــور ، ومـــن ضلال إلى هدى ، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية . لم يسبقه في ذلك أحد من أصحاب الدعوات ولم ولن يلحق به أحد منهم ، فهو آخر الرسل وخاتم النبيين .

سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه على الأقدام ، وخصف نعله بيده ، ورقع ثوبـــه ، وحلب شاته ، وخدم أهله ونفسه ، وحمل الطوب اللبن في بناء مسجده ، كان أحـــسن النـــاس معاملة ، وكان إذا استلف سلفاً قضى خيراً منه ودعا لصاحبه . تقاضاه يوماً غريم لـــه دينـــا فأغلظ عليه في الطلب ، فهم به عمر بن الخطاب يريد أن يبطش به ، فقال لعمر : (مـــه يـــا عمر ! كنت أحوج إلى أن تأمرني بالوفاء وأن تأمره بالصبر وحسن الطلب) . وباعه يهودي بيعا إلى أجل فجاءه قل الأجل يتقاضى ثمنه فقال له : (لم يحل الأجل) ، فقال اليهـــودي : (إنمك لمطل يا بني عبد المطلب) ، فهم به أصحابه فنهاهم ولم يزده ذلـــك إلا حلمـــا ، فقـــال اليهودي : (كل شيء قد عرفته من علامات النبوة وبقيت واحدة وهي أنه لا تزيده شدة الجهد عليه إلا حلما فأردت أن أعرفها) ، فأسلم اليهودي .

كان محمد صلى الله عليه وسلم محبا لمن حلوه جديراً منهم بأحسن حب وولاء ، فلم يعـــرف في تاريخ العظمة ، إنسان ظفر بنخبة من الصداقات كالتي ظفر بها محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرف عن إنسان أن أحيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه الحب الذي أحيط بـــه صاحب هذا القلب الكبير . لقد اختار زيد بن حارثة البقاء مع محمد صـــلى الله عليـــه وســـلم مؤثرا له عن أهله ، وصادقه مولاه (ثوبان) ، وتمنى أن يكون صـــديقا لـــه فـــي الجنـــة ، وصادقه بلال ، وقد كان أشد الناس فرحا حين أدركه الموت ليلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقول وهو على فراش الموت : (واطرباه غدا ألقى الأحبة محمداً وصحبه) .

لقد توطدت صداقته بأبي بكر وعمر وعثمان على وخالد ومعاذ وأسامة وابنالعـــاص وكـــانوا جميعهم على استعداد بافتداء رسول الله بنفسه ودمه . وليس أدل على حب أصـــدقاء محمـــد لصديقهم صلى الله عليه وسلم ما قله (زيد بن الدثنة) حينقال له أبو سفيان ، وهو قد نـــصب للقتل : (أنشدك الله يا زيد . أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنت من أهلك ؟) فأجابه زيد بقوله : (والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تـــصيبه شـــوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي) ، فصاح أبو سفيان دهشاً : (ما رأيت من النـــاس أحـــداً يحبـــه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً) .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم مثال الأباء كما كان مثال الأنبياء ، كان يفرح بابنته فاطمـــة ويهش لها حين تقدم عليه ، وكان يلاعب أبناءها الحسن والحسين ، وكان الحسن يركب على ظهره وهو ساجد في صلاته لا ينزله عنه حتى ينزل من نفسه . قال لفاطمة ، يوم جاءه ملك الموت يستأذنه في قبض روحه : (أني مفارق الدنيا) ، فتبكي ، ثم قال لها : (إنك لاحقة بي) فتضحك ، وفي الضحك والبكاء بين الأب وابنته أخلص الود والحب والحنان بـــين الآبـــاء والأبناء . لقد فرح صلى الله عليه وسلم حين أنجب ابنه (إبراهيم) وحزن لفراقه يوم موتـــه ودمعت عيناه وهو يودعه التراب ، حزن حزن الأب المحب لفلذه كبدء كما كل الآباء .

كان عليه الصلاة والسلام مثالاً للزوج المحب العطوف على زوجاته العادل في القسمة بينهن ، فكان عليه الصلاة والسلام يقسم بينهن في المبيت والإيواء والنفقة ، أما المحبة فكان يقـــول عنها : (اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك) ، فقيل هـــو الحـــب والجمـــاع . وكانت سيرته صلى الله عليه وسلم مع أزواجه حسن المعاشرة وحسن الخلق ، وكان إذا صلى العصر دار عل نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن فإذا جاء الليل انقلب إلى بيت صاحبه النوبة فخصها بالليل ، وكان يقسم لثمان منهن دون التاسعة ، وكانت التاسعة سودة بنت زمعة ، فإنها

لما كبرت وهبت نوبتها نعائشة . وكان إذا سافر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، ولم يقض للبواقي شيئاً . وكان إذا ما قدم من سعى لم يطرق أهله ليلاً ، وكان ينهي عن ذلك .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم مع زوجاته ، ألين الناس ، ضحاكاً بساماً ، ولم يجعل مـــن هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه ، بل أنساهن برفقة وإيناسه أنهن يخاطبن رســـول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحايين ن فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : (تكلم ولا تقل إلا حقا) ، ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها . وكان عليه الصلاة والسلام يتولى خدمة البيت معهن وكان يقول : (خيركم خيركم لأهل بيته وأنا خيركم لأهل بيته ، خدمتك زوجتك صدقة) .

هذه هي شمائل محمد الإنسان الكامل ، وما أعظمها من شمائل وما أكملها من صفات تتجمـــع في شخص واحد وإنسان واحد هو نبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف لا تتجمع مثل هذه الشمائل فيمن خلقه الله على عينه وأدبه فأحسن تأديبه واصطفاه لنفسه رسولاً وخليلاً دون سائر البشر أجمعين ، وقرن اسمه تعالى باسمه في شهادة الدخول في الدين الحنيف : لا إلـــه إلا الله محمد رسول الله .

ولقد تحدثت كتب السيرة وأفاضت في هذه الشمائل ، كما تحدثت عن معجزات النبي الماديـــة وبالغت فيها ، وبرغم إيماننا بصدق هذه المعجزات وبالاعتراف بأنها أمر هين بالنسبة لقـــدرة الله تعالى ، إلا أننا لا نحب أن نضخم من أمر هذه المعجزات الحسية ، لأن معجزة الرســـول الكبرى هي القرآن الكريم وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومسيرة تلـــك الحيـــاة وتفـــرد شخصيته وعظمتها وطيب شمائله وصدقه في دعوته وإخلاصه في رسالته وشدة إيمانه فـــي خالقه فتحت له القلوب المغلقة وألانت له الأفئدة المتحجرة وأحنت له رؤوس الجبابرة وحطمت

أصنام الشرك والوثنية دون الحاجة لهذه المعجزات . وكانت المعجزات تقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يتهدده الخطر وحين كانت حياته يتهددها الهلاك .

وهنالك في كتب السيرة أيضاً قضايا لا يحق التساهل فيها لخطورتها وردت في هـذه الكتـب سواء عن قصد أو عن طيب نيه أو دست عليها أو نقلت روايات ضعيفة لا يجـب الـسكوت عليها لأنها فتحت بابا نفذ منه أعداء الدين في الماضي والحاضر لينالوا من سـيرة الرسـول صلى الله عليه وسلم الطاهرة ، وليتخذوا منها حججا لكيدهم ودسهم لأباطيلهم ليـضربوا بهـا الإسلام ونبي الإسلامي عليه الصلاة والسلام في الصميم . وقد جاء رفضي لهذه القضايا بعـد إطالة النظر وتفحص كتب السنة والنهل من كنوزها الثمينة من تراث النبوة ، والهداية بالفطرة في تجنب الضعيف من الروايات وقبول الصحيح منها . فطرة صقلتها التلاوة الدائمة لكتـاب الله تعالى وكتب الصحاح من السنة ، وتتبع المنهج التاريخي العلمي الصحيح وأعمال النقد في الروايات ، والحب والغيرة على شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن ينـسب إلـى سيرته العطرة شيء قد يسئ فهمه المتشككون والمتربصون لدين الإسلام لنبي الإسلام عليـه الصلاة والسلام ، وما أكثرهم في هذا الزمان وفي كل الأزمان .

ومن هذه القضايا ، قضية سحر النبي صلى الله عليه وسلم على يد يهودي ، وأن هذا الـسحر قد أعجزه عن مباشرة نسائه مدة قدرها (ابن حجر العسقلاني) بستة شهور . ولقد روى هذه الرواية ابن إسحاق ، وابن سعد في طبقاته الكبرى ، عن حديث منسوب إلى الـسيدة عائـشة رضوان الله عليها ، وهي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سحر حتى كان يخيل إليه أنه يصنع الشيء ولم يصنعه . وروى أن (ابن لهيعة) روى عن عمر مولى غفره : (أن لبيـدا بن الأعصم اليهودي سحر النبي حتى التبس بصره وعاده أصحابه وأخذ عن النساء والطعـام والشراب ، ثم إن جبريل وميكائيل أخبراه بذلك ، فأخذ النبي لبيدا فاعترف فاستخرج الـسحر

من جب ثم نزعه فحله، فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفى عنه ، وأن ذلك كان بعد الحديبية بتدبير من يهود المدينة مع لبيد ابن الأعصم الساحر اليهودي) .

ووقع في رواية (عبد الله بن نمير) عن هشام بن عروة عن أبيه عن السيدة عائشة أنها قالت : سحر النبي صلى الله عليه وسلم يهودي من يهود بني زريق . وفي رواية ابن عيينة : رجل من بني زريق حليف لايهود ، وكان منافقاً . ويجمع بينهما أن من أطلق أنه يهودي نظر إلى ما في نفس الأمر ، ومن أطلق عليه منافقاً نظر إلى ظاهر أمره ، وقال (ابن الجـوزي) : (هذا يدل على أنه كان اسلم نفاقاً وهو واضح) . وقد حكى (الاضي عياض) في (الـشفاء) أنه كان أسلم ويحتمل أن قيل له يهودي لكونه من حلفائهم لا أنه كان على دينهم . وبنو زريق بطن من الأنصار مشهور من الخزرج ، وكان بين كثير من الأنصار وبين كثير من اليهـود قبل الإسلام حلف وإخاء وود ، فلما جاء الإسلام ودخل الأنصار في الإسلام تبرءوا منهم .

وقد بين (الواقدي) السنة التي وقع فيه السحر ، وأخرجه عنه (ابن سعد) بسند له إلى عمر بن الحكم ، وهو مرسل . قال : (لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية فـي ذي الحجة ودخل المحرم سنة سبع جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم ، وكان حليفا في بني زريق وكان ساحراً ، فقالوا له : يا أبا الأعصم أنت أسحرنا وقد سحرنا محمد فلم نصنع شيئاً ونحن نجعل لك جعلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير) .

ووقع في رواية أبي ضمرة عن الإسماعيلي (فأقام مسحوراً أربعين ليلـة) . وفـي روايـة وهيب ، عن هشام عند أحمد (ستة أشهر) . ويمكن الجمع بين الرأيين أن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه والأربعين يوما منع استحكامه . وقال (السهيلي) في (الروض الأنف) : (لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي صلى الله عليه

وسلم فيها في السحر حتى ظفرت به في (جامع معمر) عن الزهري أنه لبث ستة أشـــهر ، كذا قال ، وقد وجدناه موصولاً بإسناد الصحيح فهو المعتمد .

وقوله : (حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله) ، قال المازري : (أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث ، وزعموا أنه يحط من منـــصب النبـــوة ويشكك فيها . قالوا : وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل وزعموا أن تجويز ذلك بعدم الثقة بمـــا شرعوه من الشرائع إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ، وأنه يوحي إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء . قال المازري : (وهذا كله مردود لأن الدليل قام على صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن الله تعالى ، وعلى عصمته في التبليغ ، والمعجزات شاهدات بتصديقه ، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل) .

أكذلك تنال القمم ؟ من صدق هذه الرواية وقال أن ذلك وقع برسول الله صلى الله عليه وســـلم هو كمن صدق أن سفيها يستطيع أن يقذف رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم بحجـــر أو أن يستطيع مجرم أن يصيبه بجرح . ويرد الشيخ العالم الكبير (محمد الغزالي) على من يتعلل بذلك القول بقوله : (وهذا اعتذار مرفوض ، فإن السحر تسلط على الإرادة والفكـــر ، وهـــذا مستحيل بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا سيما والوسيلة فيـــه هـــي تـــسليط أرواح شريرة أو بعض الجن على الجهاز العصبي للإنسان فيوقعه على اضطراب وحيرة ، وهـــذا مرفوض مع نبي نزل عليه الكتاب وحفظه قول الله تعالى بقوله : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وهنالك قضية (الشاة المسمومة) التي أدعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكـــل منهـــا وكانت سبب علة مرض موته صلى الله عليه وسلم . فقد روى (ابن سعد) أن اليهود ســـمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن امرأة يهودية من خيبر ، هي (زينب بنت الحارث

) ، امرأة سلام بن مشكم ، أهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة مسمومة مشوية ، فأخذ منها قطعة فلاكها في فمه ثم بصقها ، فقال لأصحابه الذين كانوا يأكلون معه منها : (إمسكوا فإن فخذها تعلمني أنها مسمومة) . ثم أرسل إلى اليهودية فسألها بقوله : (إمسكوا فإن فخذها تعلمني أنها مسمومة) . ثم أرسل إلى اليهودية فسألها بقوله : (ما حملك على ما صنعت ؟) قالت : (أردت أن أعلم إن كنت صادقاً فإن الله سيطلعك على ذلك وغن كنت كاذباً أرحت الناس منك) . وقد مات (بشر بن البراء) لأنه أكل من الشاة فأكثر ، واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل الذي أكل . وأضاف ابن سعد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعد ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي قبض فيه ، جعل يقول في مرضه ك (ما زلت أجد في الأكلة التي أكلتها يوم خيبر عدادا حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيداً) .

هذا القول مردود لأن الله تعالى حافظ نبيه ، وأنه ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يثق في أي يهودي يقدم طعاما له ، لعلمه بعدواتهم له ، فما باله يقدم على طعام من امرأة يعرف عنها عداوتها له وللمسلمين ؟ ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الشخص الذي قدم على الولائم ويسيل لعابه أمام أي نوع من أنواع اللحوم . كذلك إذا كان الشاة أخبرته أن بها سما ، حسب هذه الرواية ، فكان من الأولى أن تخبره قبل أن يأكل منها لا بعد أن يأكل ويتأثر بذلك السم الذي ادعوه أنه سبب وفاته صلى الله عليه وسلم . ومن المعلوم أن مفعول السم يظهر أثره على المسمم سريعاً لا بعد ثلاث سنين . ولقد كان الوحي يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكيد اليهود له قبل وقوع ذلك الكيد مثلما حدث مع بني النضير حين رسموا أن يلقوا عليه صخرة من فوق منزل جلس تحته ، فجاءه جبريل يخبره بكيد اليهود .

فخرج راجعاً إلى المدينة وسط دهشة اليهود ، فما الذي منع جبريل أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المرة بأمر هذا السم ؟ .

وهنالك قضية المغالاة في قوة الرسول الجنسية ، وهذا ما أورده صاحب الطبقات ، تحت عنوان : (باب ذكر ما أعطى رسول الله من القوة على الجماع) ، وهو ينسب إلى حديث ترجع نسبته إلى أسامة بن زيد عن صفوان ابن سليم أنه قال (اتأنى جبريل بقدر فأكلت منها فأعطت قوة أربعين رجلاً في الجماع) . وقد قلل ابن إسحاق هذه القوة فجعلها قوة ثلاثين رجلاً لا أربعين .

كذلك هنالك قضية المغالاة في قوته الجسدية والعضلية ، في الرواية التي رواها ابن هشام عن ابن اسحاق ، وكذلك رواها ابن سعد وابن قيم الجوزية من صرع الرسول صلى الله عليه وسلم للبطل القرشي العملاق (ركانه بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف) . قال ابن اسحاق : (كان ركانه أشد قريش فخلا بروسل الله صلى الله عليه وسلم في بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟) قال : إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟) ، قال نعم ، حتى أصارعك ، قال : فقام إليه ركانه فصارعه فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئاً . ثم قال : عد يا محمد ، فعاد فصرعه ، فقال : يا محمد والله إن هذا للعجب أتصرعني ؟ فقال رسول الله : (واعجب من ذلك إن شئت أريكة إن اتقيت الله واتبعت أمري) قال : وما هو ؟ قال : (أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني) قال : أدعها ، فدعاها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فقال لها : أرجعي مكانك ، قال فرجعت مكانها . قال : فذهب ركانة إلى قومه فقال : يا بني عبد مناف

ساحروا بصاحبكم أهل الأرض ، فوالله ما رأيت أسحر منه قط ، ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع) .

هذه الروايات ، وردت في كتب السيرة النبوية المعتمدة لتثبت قوة الرسول الجنسية وقوته الجسدية ، وهي أقوال ليس مشكوك فيها لتبرز ما ميز الله تعالى بها رسوله ، لكن في الحقيقة فإن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست بحاجة لإثبات مثل هذه الأمور ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يباهي بقوة جنسية ولا قوة جسدية ، ولا هو أشاع بأنه يتميز على سائر البشر بشيء سوى باصطفائه بالنبة ليكون لله نبياً ورسولاً وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً . لم يصارع رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً بقوته الجسدية ولكنه صرعها بقوة إيمانه وشدة عزيمته وثقته بتأييد الله له ونصره ، ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً بحاجة للقوة الجنسية ، لأنه كان رجلاً كسائر الرجال ، ولم يكن متفرغاً لأمر الجنس ، ولم يكن لديه الغرض في ذلك ولا القصد . كذلك لم يكن لديه القوت ، فهو رسول دعوة وقائد أمة ومعلم رسالة ، ورب أسرة يقضي جل يومه في الدعوة لله والنظر في أحوال أمته ، ويقضي نصف ليله أو أكثر من نصفه في القيام حتى تتورم قدماه ، ويقضي معظم عامة صائما فمن أين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالوقت حتى يستغل هذه القوة التي أوتيها كما تدعي هذه الروايات ؟ ولو كان الأمر فعلاً كما يقولون لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة لأن يتزوج من أربعين زوجة أو ثلاثين على أقل تقدير لتصريف هذه الطاقة التي لا قبل له لكبح جماحها ، لا يتزوج تسع زوجات ، أربعة منهن فقط في سن صغيرة . إن المبالغة في قوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الجسدية قد تكون جاءت على لسان قائليها عن حب وعن إعجاب بهذا النبي العظيم والإنسان الكامل ، لكن ما أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

هذه الأمور الدنيوية التي يتصف بها من يبغون متع الحياة الدنيا ، وما كان أبعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وما أشد زهده في الدنيا ولذائذها !

وفي الوقت الذي يبالغ فيه هؤلاء بهذه الأمور نراهم يبالغون أيضاً في تجويع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، وقسوته على نفسه في أمر الزاد والطعام ، فيقول صاحب الطبقات أن (فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت يوما بكسرة خبز إلى والدها ، فقال لها : (ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟) فقالت : (قرص خبزته ؛ فلم تطب نفسي حتى أتيك بهذه الكسرة) . فقال : (إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام) . كذلك يذكر ابن سعد عن أبي هريرة رضي الله عنه : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشد صلبه بالحجر من شدة الجوع ، وأنه كان يمر بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال ثم هلال لا يوقد في شيء من بيوته نار لا لخبز ولا لطبيخ . فقالوا : بأي شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة ؟ قال : بالأسودين : التمر والماء) . كذلك ذكر ابن سعد ، أن يوم توفى رسول الله توفى ودرعه مرهونة عند رجل من اليهود بوسق (جوال) من شعير . هل هذا قول معقول ، أوصل الأمر برئيس دولة الإسلام وقائد دولة المسلمين أن يتقوت عن غلة عدو يهودي ؟ .

مبالغة في القوة الجسدية والجنسية ، يقابلها على النقيض ، مبالغة في الجوع والعوز والمعاناة ، وذلك ما لا يليق بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لو صدقت رواياتها وأسانيدها ، فإنها مبالغة تسيء إلى السيرة العطرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم سواء كانت عن أغراض أو عن حب ، ما أغنى صاحب السيرة المطهرة عنها .

وهنالك من الأمور الصغيرة التي وردت في كتب السيرة ، من الأفضل لنا نحن الغيورون على سيرة الإنسان الكامل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حذفها من هذه الكتب وإغفالها ، من هذه الأمور قول ابن سعد ومعه ابن القيم أنه (كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم

مكحلة يكتحل بها عند النوم ثلاثا في كل عين) . وقول ابن القيم أن في سنن ابن ماجه وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كانت للنبي صلى الله عليه وسلام مكحلة يكتحل منها ثلاثا من كل عين) . وفي الترمذي عن ابن عباس رضي اله عنها ، قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اكتحل يجعل في اليمني ثلاثا ، يبتدئ بها ويختم بها ، وفي اليسرى ثنتين) . ولقد ثبت ضرر الكحل للعين ، وأنه سبب من أسباب العمى ، فحاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل شيئاً يضره ويضر اتباعه ، وهو المثل والقدوة ونحن مأمورون باتباع سنته من قول وعمل وسلوك ، لقد كانت عيني رسول الله من أحلى عيون كحلها رباني ، كما وصفته أم معبد .

كذلك قول ابن سعد عن صفته في مأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يلعق أصابعه ، قال عن كعب بن مرة ، قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع ، قال ابن هشام : بالإبهام والتي تليها والوسطى ، ثم رأيته يلعق أصابعه الثلاث حين أراد أن يمسحها ، وقبل أن يمسحها لعق الوسطى ثم التي تليها ثم الإبهام) بالله عليكم كيف جرؤ كاتب هذا القول على نسبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف لنا بلعق أصابعنا اليوم بعد أن اعتدنا الأكل بالملاعق والشوك والسكاكين إذا أردنا في ذلك اتباع سنة نبينا ؟ .

ومن القضايا التي أخذ بها بعض كتاب السيرة مثل ابن سعد وبعض المفسرين المسلمين مثل ابن حجر العسقلاني ، حديث (الغرانيق) ، وهو حديث يجب حفذفه تماما من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك لأنه لا يسئ للسيرة وحدها بل للدعوة الإسلامية عموما ولرسالة التوحيد التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم وأخوته الأنبياء والرسل من قبله .

ويتلخص هذا الحديث ، الذي يتصل بعودة المهاجرين الأولين من الحبشة وسبب هذه العودة ، والذي يحلو لبعض المستشرقين المغرضين والكتاب المضللين ربط تلك العودة به ، في القصة

الكاذبة التي أوردوها عن مصالحة وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش على أن يعترفوا بدينه مقابل أن يعترف بدوره بآلهتهم ، وأن تتم المصالحة على هذا الأساس .
وكلمة (غرانيق) ، ومفردها (غرنوق) كلمة غير شائعة في العربية ، وهي تعني : الحجر الأبيض ، والغرانيق هي الحجارة البيضاء ، والمقصود بها في القصة هنا : أصنام قريش وأوثانها .

ولقد وردت القصة في الجزء الثاني من كتاب (تاريخ الرسل والملوك) لمحمد بن جرير الطبري ، وللحافظ ابن كثير في تفسيره الكبير . وقد أورد ابن كثير هذه القصة وعلق عليها في تفسيره للآيات الثانية والخمسين والثالثة والرابعة والخمسين من سورة (الحج) ، ابتداء من قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكي الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد) ويقول ابن كثير : (قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ولمأرها من وجه صحيح والله أعلم) . ولقد أراد ابن كثير أن يوضح هذه الروايات التي أوردت هذه القصة أنها روايات مرسلة ، بمعنى أن إسنادها ينتهي إلى أحد التابعين لا إلى أحد الصحابة ، وهي عنده بذلك روايات غير صحيحة .

وقد أورد ابن كثير عديداً من الروايات التي روت هذه القصة واحدة منها تنتهي إلى التابعي (سعيد بن جبير) ، الذي قال في روايته : (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة (النجم) ، فلما بلغ موضع : (أفرأيتهم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى) فألقى الشيطان على لسانه قوله : (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى) ، قالوا ، أي المشركين ، : (ما

ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم) فسجد وسجدوا ، فأنزل الله هذه الآية : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ....) إلى آخر الآية . وتتمادى الرواية في ادعائها الكاذب فتقول : (أن قريشا أعلنت بذلك رضاها عن محمد ، وان باعتراف محمد بشفاعة آلهة قريش قد زال وجه الخلاف بينهما ، وأن الأمر قد فشا بين الناس حتى بلـــغ أر الحبـــشة ، وبـــسببه عـــاد المهاجرون المسلمون الأولون منها إلى وطنهم مكة) .

والقصة ، كما هو واضح من سردها ، مختلفة من أساسها وليست بمعقولة ولا مقبولة لأنهـــا تنقض الدعوة الإسلامية من أساسها وتجدد أمر الوثنية وعبادة الأصنام والشرك بالله ، وهذا ما جاء الإسلام أساساً لمحاربته والقضاء عليه ، ولذلك لم يتردد ابن إسحاق حـــين ســـئل عـــن حقيقتها ، قال أنها من وضع الزنادقة .

ولقد فند علماء المسلمين هذه الرواية وفضحوا كذبها الواضح ، ما عدا عالم واحد هـــو الـــذي صدقها وعلل صدقه بوقوعها بعلل من بينها تعدد رواياتها ، هذا العـــالم هـــو (ابـــن حجـــر العسقلاني) ، وهو من علماء المسلمين الكبار ومؤرخيهم الذين عاشوا فـــي القـــرن الثـــامن الهجري . وقد رد علماء أجلاء على رأي ابن حجر ، مستندين في ردهم على عصمة الرسل في التبليغ عن رب العزة سبحانه وتعالى ، باعتبارها أصلا من أصول الإسلام . وهـــم فـــي نقاشهم لتلك الروايات عن هذه الواقعة المزعومة يوضحون التناقض والتباين في نص الكلمات الدخيلة فيها وتفاصيلها الأخرة والتنبيه إلى أن كل هذه الروايات روايات مرسلة ، مما يـــدلل على بطلان هذه القصة من أساسها .

ولقد أبطل (القاضي عياض) حديث الغرانيق هذه من أربعة وجوه عقلية ، بالإضافة إلى ما بينه من فساد أسانيده النقلية ، وهذه الوجوده هي ، الوجه الأول منها هو عصمة النبي صـــلى الله عليه وسلم من هذه الرذيلة فمن المستحيل أن يتمنى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينـــزل

عليه مدح آلهة غير الله تعالى ، أو أن يتسود عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن ، أو أن يتعمد تغيير كلام الله تعالى ، أو حتى السهو فيه أثناء نزول الوحي عليه . والوجه الثاني ، أن هـــذه العبارات الدخيلة على الآية الكريمة بعيدة الالتئام ، متناقضة مع القول الذي جاء قبلها والـــذي جاء بعدها ، وأن بهذه العبارات الدخيلة اعوجاج وركاكة في الأسلوب وهو أمر غير مـــألوف في كلام الله المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والوجه الثالث : أن هذه الرواية الضعيفة لو كانت قد صحت لوجدت فيها قريش واليهود فرصـــة لا تعـــوض لإقامـــة الحجة على المسلمين ، ولكانت سبباً في فتنة عظيمة بين المسلمين أنفسهم وهو ما لم يحـــدث ولم يقل به أحد . ويواصل القاضي عياض تفنيده لهذه الدعوة الباطلة بقوله أن الوجه الرابـــع هو أن الله تعالى قد عصم نبيه أن يركن إلى المشركين شيئا قليلاً ؛ فيكف يركن لهم شيئا كثيراً .

وينتهي إسناد الروايتين اللتين رواهما الطبري في تاريخه ، إحداهما إلى التابعي (محمد بـــن كعب بن سليم القرظي) ، والثانية إلى نفس التابعي ويشترك فيها معه تابعي آخر هو (محمد بن قيس) . والقرظي هذا يهودي الصل من يهود بني قريظة ، وكان قد نجى من القتل حـــين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل رجال بني قريظة ، بعد غزوة الأحـــزاب ، وكـــان صبياً لم يبلغ الحلم ، ولم يذهب القرظي إلى مكة قبل الهجرة ، بل عاش حياته كلها في المدينة ، ولم ير تلك الحادثة المزعومة .

ومما يؤكد كذب وتلفيق قصة الغرانيق هذه ، هو أن الناظر إلى سيرة النبي العظـــيم محمـــد صلى الله عليه وسلم يتبين له من خلالها شخصية عظيمة قوية الإرادة ثابتة الإيمان لا تستسلم لهزيمة ولا تخضع لقوة إلا لقوة الله تعالى . ومهما كانت قوة خصومه ، رأيناه وهـــو قـــوى يتحدى قريشاً بجبروتها بمفرده ، ورأيناه يستهزئ بسادتها وهم يعرضون عليه المال والجـــاه

والرئاسة والزعامة والملك عليهم . رأينا إيمانه لم يتزحزح قيد أنملة في أحلك الظروف التـي مرت به : وهو في الطائف حين رده أهلها مهاناً مكسور الخاطر مصاباً ، لم يشكو إلا لمولاه ، ولم يكن خوفه إلا أن يكون ربه غير راض عنه . رأيناه في أحد ، وهـو بعـد الهزيمـة ، جريح مهزوم ، ولكنه يطلب من واحد من رجاله أن يرد على أبي سفيان حين صاح قائلاً : (أعل هبل) ، بقوله (الله عز وجل) . رأيناه يوم حنين ، يقف متحدياً وهو يقول : (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد الله بن عبد المطلب) . وإن صاحب هذه الشخصية العظيمة وصاحب هذا الكمال الإنساني ، وصاحب أسمى رسالة اصطفاه بها رب البرية من بين جميع خلقه وصاحب التأييد الإلهي والذي أراه الله تعالى ما رأى من آياته الكبرى ؛ لا يعقـل أن يتزحـزح شـبراً واحداً عن دعوته ورسالته التي كلف بها تحت أي ضغط من الضغوط أو تحت أي إغـراء ، وعن حجر الزاوية الذي ارتكزت عليه رسالته ، وهو مبدأ التوحيد .

إن الشيطان لا يمكن له أن يخترق وجدان النبي ولا قلبه أو فكره حتى يلقي في حديث النبـي لأن عناية الله حافظة له والشيطان لا يستطيع الاقتراب منه ، ولو اقترب لاحترق بنوره صلى الله عليه وسلم . والنبي لا ينطق عن الهوى (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) . فالنبي عليه الصلاة والسلام معصوم من قبل الله تعالى في مراحل الوحي المختلفة : مرحلة الاستلام ، ومرحلة الاحتفاظ بما يوحي به إليه ، ومرحلة تبليغه . ورواية الغرانيـق تخـالف القرآن الكريم وتهدم الإسلام من أساسه وتلغى سبب وجوده ، وهو بذلك تجعله هذه الروايـة لوناً من ألوان العبادات الوثنية . ولا يعقل على الإطلاق أن يتحمل محمد صلى الله عليه وسلم ما تحمل من أذى وتحقير وتسفيه واستخفاف من قومه ، فيقوم بعد ذلك ، متناسياً كل ما وقـع له منهم ، بإرضائهم بعقد زواج بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك والوثنية .

وإن تفسير آية (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) ، فالمقصود بها هنا أمنية الرسول صلى الله عليه وسلم وليس حديثه ، كما ذهب إليه البعض ، وليست كذلك قراءته وفعله ، كما ذهب البعض الآخر ، إنما أمنية الرسول هي أمله في إسلام قومه الذي ينتمي إليه ، وتمنيه أن يؤمنوا ويصدقوا دعوته حتى ينالوا الخير في الدنيا والجنة والنعيم في الآخرة ، وهو يعلم أنه على الحق وأن قومه على الباطل ، ولكن الشيطان يحول دون تحقيق هذه الأمنية بزخرفة الشرك والوثنية والباطل لقومه وإبعادهم عن هدى نبي الله وزيادتهم عمى وصلف وغباء . وقد كانت هذه أمنية كل الأنبياء الذين بعثوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كانت هي أمنية محمد العزيزة صلى الله عليه وسلم .

ولكن قوم كل نبي كانوا يقاومونه ويعارضونه ويصدون عن سبيله بحجة الحفاظ على تراث الآباء والأجداد . ولكن الله يطارد الباطل وينسخ ما يلقيه الشيطان من أماني ويقوم بتعريته في محكم آياته .

وقصة الغرانيق وضعها حلف الشيطان القديم ليستغلها حلف الشيطان الحديث للصد عن سبيل الله والتشكيك في دعوة رسالة التوحيد التي جاء بها خير الناس أجمعين . ولا يفوتنا في هذا المقام ، ونحن نتكلم عن هذه القصة أن نسرد رواية الكاتب المرتد (سلمان رشدي) صاحب كتاب (آيات شيطانية) لهذه القصة وخوضه فيها بطريقة روائية فجة . وقد جعل عديم الرشد هذا أحداث هذه القصة تدور في مكة المكرمة التي أختار لها إسماً تنكرياً فسماها : (جاهلية) ، وهو يصور في هذه القصة النبي صلى الله عليه وسلم في حوار مع (أبي سفيان) ، زعيم قريش ، وهو يساومه في تخفيف هجومه على أصنامهم وأوثانهم ، مقابل أن تخفف قريش من اضطهادها وإيذائها له ولأتباعه ، فيعده محمد صلى الله عليه وسلم أن يفكر في الأمر بعرض الصفقة على صحابته والأخذ برأيهم فيما ينتهون إليه . وتواصل الرواية البذيئة القول بأن

الصحابة حذروا النبي صلى الله عليه وسلم من الوقوع في هذا الفخ الذي نصبه له أبو سفيان ، لكن النبي لم يقتنع برأيهم وصعد إلى (الغار) ثم ينزل منه بعد فترة ليقول لهم بأن جبريل قد أوحى إليه بآيات جديدة قرأها عليهم ، على جمع يضمهم ويضم عبدة الأصنام معاً : (أفرأيتهم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وأن شفاعتهن لترجي وأنها لمع الغرانيق العلا) فسجد وسجد أتباعه وسجد عبدة الأصنام معه حين سمعوه يمتدح آلهتهم . ويواصل الشيطان صاحب الآيات الشيطانية روايته بقوله : (أن النبي ، بعد فترة ، وبسبب احتجاج صحابته عليه ، أدرك أن أبا سفيان قد خدعه ، فيذهب ثانية إلى الغار ، ويغيب هناك لفترة ثم يعود ليقول لصحابته أن جبريل قد أمره بحذف تلك العبارات التي تمتدح أصنام قريش وإحلال عبارات أخرى مكانها ، وهي الآيات المعروفة من سورة النجم .

ثم ينهي المؤلف المرتد القصة بخروج النبي من مكة عائداً إلى يثرب ويترك هذا الكاتب الأبلة قارئ هذه الملهاة بين احتمالات ثلاثة لا يمكن أن يخرج مقصوده السوداوي عنها : الأول ، وهو إما أن جبريل عليه السلام قد تلبس في صورة شيطان فأملي تلك العبارات على النبي ثم عاد إلى صورته الأصلية فطلب منه أن يحذفها .

والاحتمال الثاني ، أن جبريل عليه السلام قد خالف ما أمره الله به وتلاعب بالوحي الذي يحمله والذي أمر أن يبلغ النبي به . والثالث ، أن النبي لم يوحي إليه بشيء وأنه ألف الكلام من عنده حين ضعفت نفسه ومقاومته أمام اضطهاد المشركين له ولجماعته فاستسلم ورفع الراية البيضاء ومدح آلهتهم ، ثم رجع عن موقفه هذه لما بين له صحابته الخطأ الذي وقع فيه فعاد يذم آلهتهم . وكل احتمال من هذه الاحتمالات الثلاثة تدفع مؤلفها ومن صدقها إلى الكفر الصريح وتقطع بارتداده عن الإسلام إن كان قبل ذلك مسلماً أصلاً .

ولقد تصدى كتاب الله لهذه المحاولات الهدامة قديماً وحديثاً ، وقضى عليها ، وأفحم وألجم أصحابها وألزمهم الحجة البالغة فأنهارت بذلك حصون الشرك في القدم ، وهي تنهار في كل وقت ، وسيستمر انهيارها إلى الأبد وحتى قيام الساعة وسيبقى نور الله تعالى وقاداً وهاجاً ، ذلك النور الذين يريدون أن يطفئوه بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

ومن القضايا التي يجب أن ترفع من سيرة رسول الله تلك الرواية التي تقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب لأمته كتاباً في مرضه الذي مات فيه يضع فيه بعض التعاليم والوصايا ، لكن المجتمعين حول فراشه لغطوا واختلفوا فاغتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وامتنع عن كتابه هذا الكتاب .

يقول ابن سعد : (لما حضرت رسول الله الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ك (هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده) فقال عمر : (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله) ومنهم يقول ما قال عمر ، فلما كثر اللغط والاختلاف وغموا رسول الله فقال : (قوموا عني) ، فكان ابن عباس يقول : (الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب مع اختلافهم ولغطهم) . تلك الرواية رواية غير واقعية ، لأنه من غير المعقول أن ينتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لآخر لحظات حياته ويتذكر وقتها ، وهو يستعد للقاء ربه ، أن يكتب لأمته كتاباً بعد هذا العمر الطويل الذي عاشه معهم ، وبعد أن اكتمل نزول الوحي عليه وتمام الدين وذلك في قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) .

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم حياة طويلة بعد البعثة قوامها ثلاث وعشرون عاماً يهدي الناس ويرشدهم ويتلقى الوحي ويبلغه لهم ويطبق تشريع الله تعالى ويسوس الدولة بعد

أن أقامها في المدينة وينظم أمورها ويضع أساساتها . وإذا فرضنا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يوصي بشيء قبل وفاته لأهله أو لغيره أهله ، وقد تذكر هذا الشيء في هذه اللحظات الأخيرة التي كان يعاني فيها من سكرات الموت ويدعو ربه أثناءها بقوله : (اللهم أعني على سكرات الموت) ، فإنه ليس لأحد أن يجرؤ على مخالفته في ذلك وعدم تلبية آخر رغباته في الحياة لا عمر ولا غير عمر . وحاشا لله أن نقول أن رسول الله أو ينسب لعمر القول بأن رسول الله قد غاب عن وعيه ، بل إنه عليه الصلاة والسلام ظل في كامل وعيه حتى خرجت روحه الطاهرة إلى بارئها وهو يقول : (إلى الرفيق الأعلى) صلى الله عليه وسلم .

وآخر هذه القضايا التي يجب أن نناقشها في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ونضع حداً للغو اللاغين فيها ، وهي قضية تعدد زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي طالما اعتاد المستشرفون الحديث عنها واللمز فيها . وقد سبق أن أوضحنا أن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ليست كحياة أي شخص عادي ، وأن تربيته هي تربية إلهية وأن نمط حياته جاء من صنع الله تعالى وخصوصية له عليه الصلاة والسلام ، فقد اختصه الله تعالى بأشياء لم يخصها لغيره من البشر ، ومن هذه الخواص تعدد زوجاته ، وهو عليه الصلاة والسلام لم يختر زوجاته لنفسه ، ولكن الله تعالى اختارهن له بتكليف منه سبحانه وتعالى لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى . وهذه الزيجات لم تتم لرسول الله في شبابه وقبل البعثة وإنما تمت في العشر الأواخر من حياته بعد الهجرة إلى المدينة . وقد تجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم سن الكهولة .

لقد عاش محمد صلى الله عليه وسلم في مجتمع تعددت فيه الزوجات في الجاهلية والإسلام ، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم يشذ عن المجتمع ، وإذا كان غير محمد قد تعددت زوجاته

لأسباب ترفيهية أو للذائذ جنسية ، فإن الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم جد مختلف ، فهـي جاءت لتنفيذ أوامر ربانية إما لوضع تشريع ، أو لزيادة رابطة أواصر ، أو لإعالـة أرملـة فقدت عائلها في سبيل الله ، أو لرعاية أسرة فقدت راعيها وتعرضت للضياع ، وإما نصيباً من فئ أو غنيمة . ولنستعرض زيجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ونتبين ذلك الأمـر مـن خلال ملابسات تلك الزيجات .

فقد كانت أولاهن السيدة خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية ، تزوجها صلى الله عليه وسـلم قبل النبة ، وقد اختلفت الآراء حول عمر السيدة خديجة عندما تزوجها رسول الله صـلى الله عليه وسلم فيرى بعض المؤرخين أنها كانت في الأربعين من عمرها وحجتهم فـي ذلـك أن السيدة خديجة تزوجت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، فلما مات زوجها الثـاني مرت عليها فترة كانت ترفض فيها الزواج ممن تقدم لها ، وواضح من ذلك أن الـذين قـالوا بهذا الرأي لم يقدموا دليلاً حاسماً لقبوله .

أما الرأي الذي نراه فهو أن السيدة خديجة كانت في حوال الثامنة والعشرين مـن عمرهـا أو دون ذلك . ونعتمد في هذا الرأي على عدة عوامل ، وهي ، أولاً : لو كانت السيدة خديجة في سن الأربعين لما سمحت لها مكانتها وشرفها أن تعرض نفسها للزواج وبخاصة من شاب لـم يتزوج من قبل ويصغرها بحوالي خمسة عشر عاماً ، أي من الممكن أن يكون في عمر ابنها .

ثانياً : لو كانت في سن الأربعين لما استطاعت أن تنجب أربع بنات وولدين ذكرانا للرسول صلى الله عليه وسلم ، فالمرأة في مثل هذه السن قد لا تنجب ، أو تنجب على الأكثر طفلاً أو طفلين ثم تتوقف عن الإنجاب . وقد أنجبت السيدة خديجة ابنها (الطاهر) لرسول الله صـلى الله عليه وسلم في الإسلام ، على حسب رواية ابن هشام ، أي بعد أكثر من خمسة عشرة سنة

على الأقل من زواجها منه ، ومعنى هذا لو سلمنا بأنها تزوجت الرسول في سن الأربعين ، أنها أنجبت الطاهر وهي في السادسة والخمسين أو السابعة والخمسين ، وواضح جداً أن المرأة لا تنجب في مثل هذه السن إلا نادراً ، لأن سن اليأس عند المرأة يبدأ قبل ذلك مهما كانت تعيش في عز ورخاء .

ثالثاً : وليس زواجها مرتين وفضها الخطاب بعد ذلك دليلاً على وصولها سن الأربعين ، فالفتيات في الجزيرة العربية يتزوجن في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، وقد تزوجت السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب من (خنيس بن حذافة) ، ولما مات زوجها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عمرها عند زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ثمانية عشر عاماً ، وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم عائشة وهي في سن الثانية عشرة ، ولو فرضنا أن السيدة خديجة تزوجت زوجها الأول وهي في الخامسة عشر من عمرها وبقيت معه ثلاث سنوات ومات عنها وهي في الثانية عشرة . ثم تزوجت بعد عام من زوجها الثاني وبقيت معه ثلاث سنوات أيضاً فإنه تصبح في الثانية والعشرين من عمرها عندما مات عنها زوجها الثاني . وعلى هذا فالتقرير الذي نراه صحيحاً هو أن السيدة خديجة كانت لا تزيد سنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تزوجت منه عن عامين أو ثلاثة ، وقد قال بهذا الرأي (عباس العقاد) استناداً على رأي ابن كثير في كتابه السيرة النبوية .

وكانت السيدة خديجة أم أبناء النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً إلا إبراهيم ، وهي التي آزرته على النبوة وجاهدت وواسته بنفسها ومالها ، وأرسل الله تعالى إليه السلام مع جبريل عليه السلام ، وهذه خاصة لا تعرف لإمرأة سواها ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين ولم يتزوج عليها صلى الله عليه وسلم حتى ماتت .

وكانت (سودة بنت زمعة العامرية القرشية) ، أو زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة السيدة خديجة بشهر ، بعد أن توفى عنها زوجها (السكران ابن عمرو بن عبد شمس) بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة وأهلها على الكفر ، وكانت تبلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً ، ولم تكن جميلة ولا ذات ثراء . وغذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يدعي أعداؤه ، أنه يتزوج لإشباع جنسي ، لما تزوج من هذه المرأة العجوز الفقيرة وكانت أمامه الفرصة ليتزوج من فتاة صغيرة شريفة ، وما كان أكثرهن آنذاك . تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من سودة بعد أن صارت أرملة لا عائل لها ولا تستطيع العيش مع أهلها المشركين خشية أن يفتنوها في دينها . فكان لابد لها من عائل ، ولم يكن هنالك أرحم من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي اعتبر أب لكل المسلمين . وقد عاشت سودة بعد روسول الله صلى الله عليه وسلم خمس سنوات وتوفيت ودفنت بالبقيع في آخر عهد خلافة عمر بن الخطاب . وكان سودة فد وهبت ليلتها للسيدة عائشة حين أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلقها وأن يمتعها .

وكان زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من سودة ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا في سبيل الله فلن يتركوا وراءهم ذرية ضعافاً يخافون عليهم ، وسيجدون رجالاً يرعون أسرهم وقد ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل بنفسه ، وما أروعه من مثل وما أعظمها من قدوة صالحة .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (السيدة عائشة) ابنة صديقه أبي بكر ، ليزيد من روابط الصداقة والمحبة بينهما برابطة المصاهرة . وقد كان أبو بكر أحب الناس إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم لا يزيد هذا الحب قوة بمصاهرته من أحب البنات إلى قلبه ابنته الصغرى عائشة ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة مباشرة ،

وكان قد خطبها من أبيها قبل الهجرة في مكة ، وكانت وقتها قد تجاوزت العاشرة من العمر ، وكانت قد خطبت قبله لجبير بن المطعم بن عدى ، وهذا دليل على أنها كانت مؤهلة في نظر خطابها للزواج . وحين تزوج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عائد من غزوة بدر ، كانت قد جاوزت الثانية عشرة من عمرها ، ولم تكن في العاشرة كما يدعي بعض المغرضين . وقد توفيت السيدة عائشة ودفنت بالبقيع في عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٨ للجرة ، وعاشت أرملة بعد وفاة سيد الخلق سبعاً وأربعين عاماً ، ولم تنجب السيدة عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كانت السيدة عاشئة أحب زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة .

أما (حفصة بنت عمر بن الخطاب) ، فقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسـلم لـنفس غرض زواجه من السيدة عائشة رضوان الله عليهما ، فقد أراد رسول الله صـلى الله عليـه وسلم أن يقوي صداقته لعمر بالمصاهرة . ولم تكن مكانة عمر في قلب رسول الله صـلى الله عليه وسلم بأقل من مكانة أبي بكر ، فقد كان الإثنان له خير الصاحبين . ولم تكن حفصة ذات جمال ، وكان أبوها قد عرض تزويجها على كل من أبي بكر وعثمان ، برغم أنهما كانا فـي السن أكبر من عمر ، ليتزوج أحد منهما منها ، فأظهرا عدم القبول ، فشرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزواج منها وأعلى قدرها في أن تتزوج ممن هو خير منهما . ولقـد توفيـت حفصة سنة ٤٥ للهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ولم تنجب لرسـول الله صـلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر (أبو داود) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة تطليقـة ، ثم راجعها .

وزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (زينب بنت خزيمة بن الحارث) القيسية من بني هلال بن عامر ، فكان شفقة بها بعد استشهاد زوجها (عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلـب ،

ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر ، وهو شاب حديث الزواج منها . لذلك كان استشهاده صدمة قاسية عليها ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفكف دمعها ويجبر خاطرها فتزوجها ، وضمها غليه وبنى لها حجرة بجوار حجرتي زوجتيه سوده وعائشة . وكانت زينب بنت خزيمة تلقب (بأم المساكين) لرحمتها الواسعة بالمساكين وحرصها على الصدقة عليهم . ولم يطل عمر زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب فقد ماتت بعد ضم رسول الله صلى الله عليه وسلم لها بشهرين ، وهي قي مقتبل العمر .

وزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (أم سلمة) ، هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية ، وهي آخر زوجاته لحاقاً به صلى الله عليه وسلم ، فكان لرعاية هذه الزوجة الكثيرة العيال والتي مات عنها زوجها (أبو سلمة) ، عبد الله بن عبد الأسد ابن المغيرة المخزومي القرشي ، وهو ابن عمة الرسول صلى الله عليه وسلم (برة بنت عبد المطلب) ، وهو كذلك أخو الرسول صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، أرضعتهما (ثويبة) جارية أبي لهب . مات عنها زوجها أثر ضربة أصابته في حرب (بني أسد) ، وتركها مع عيال كثيرة دون أن يكون لها عائل ، فكان عائلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت أم سلمة قد تجاوزت سن الخمسين حين تزوج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد توفيت سنة ٦١ للهجرة ، عقب استشهاد الإمام الحسين بن علي في كربلاء .

أما زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (زينب بنت جحش بن رئاب) ، وهي ابنة عمته (أميمة بنت عبد المطلب) ، فقد كان تنفيذاً لأمر سماوي لتطبيق تشريع إلهي نزلت به الآية رقم ٣٧ من سورة (الأحزاب) التي يقول الله تعالى فيها : (وإذ تقول للذين أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس

والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حـــرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) .

وقد تربت زينب ، وهي طفلة صغيرة بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنايته ، وكانت له بمقام الأبنة أو الأخت الصغرى التي عرفها جيداً وشهد نموها وهي طفلة ، ثم وهي صبية ، وهو الذي زوجها من مولاه (زيد بن حارثة) ليرفع من قدره . وقد تحـــدث المستـــشرقون الحاقدون كثيراً عن هذه الزيجة بالذات لرسول الله صلى الله عليه وســـلم ،ونـــسجوا حولهـــا الروايات وحلق بهم خيالهم المريض إلى أحكام مريضة قصدوا بها الطعن في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشويه سيرته العطرة واتهامه بوقوعه في غرام ابنة عمته ، حـــين تكشف له جمالها ، وعمله على تطليقها من مولاه زيد . وقد صور بعض هؤلاء المستـــشرقين المرضى لحظة وقوع النبي صلى الله عليه وسلم في غرام زينب وأسفة لعدم الزواج منها قبل أن يزوجها لأبنة بالتبني زيد ، وصفوها (وقد دخل عليها رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم خيمتها في ليلة صيفية ، وقد هبت نسمة أزاحت ثوبها عن جسدها فبدت له نصف عاريـــة أو تكاد وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسدها الناطق بما يكنه من كل معاني الهوى) . وذكر آخرون أنه : (حين فتح باب زينب ، وهي في بيت زيد ، لعب الهـــواء بأســـتار غرفتهـــا ، وكانت ممدة في فراشها في ثياب نومها ، فعصف منظرها ، وهي شبه عارية ، بقلـــب ذلـــك الرجل الشديد الولع بالنساء وبمفاتنهن ، فكتم حبه لها في نفسه ، وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلاً فعمل على تطليقها من زيد والزواج منها) .

وأمثال هذه الصور التي لا تصدر إلا عن مراهقة فكرية جاء بها أصحاب النفوس الـــضعيفة لينالوا بها من القمة التي اعتلاها محمد صلى الله عليه وسلم والأدب الرباني الذي تـــأدب بـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهؤلاء من أمثال : (موير) ، و(درمنجم) ، و(واشنطن

) ، و(أرفنج) ، و(لامانس) ، و(رودنسون) ، وغيرهم من المستشرقين المغرضين الذين تصدوا في كتاباتهم لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومما يدعو للأسف أن هؤلاء الكتاب الذين عمى الله بصائرهم عن هدى محمد صلى الله عليه وسلم وأغلق عقولهم عن الفهم الصحيح لسيرته صلى الله عليه وسلم وتربيته وأخلاقه وسلوكه ، اعتمدوا في رواياتهم على ما فهموه خطأ مما ورد في كتب السيرة والحديث وعلى تفسيرهم الخاطئ لبعض آيات القرآن التي عرضت لهذا الموضوع . ثم أقاموا صورهم القبيحة من خيالهم المراهق المريض في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلته بالمرأة . وقد استدلوا في ذلك بتعدد زيجاته التي بلغت تسعاً .

لقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنة عمته زينب من طفولتها ، وعرف أنها تميزت بالجمال وأنها تزداد جمالاً مع الأيام ، ذلك لأن الحجام لم يكن قد فرض يومئذ . فإذا كان لمحمد صلى الله عليه وسلم رغبة في الزواج من زينب وهي قد ازدادت صباً وجمال عند بلوغها سن العشرين أو بعدها ، فما الذي جعله ينتظر حتى تبلغ الخامسة والثلاثين ويتزوج منها بعد تطليقها من زيد ؟ وإذا كانت لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة في الزواج من ابنة عمته في أي وقت ، قبل أن تتزوج من مولاه زيد ، فإن أهلها ، الذين هم أهله ، كانوا سيرحبون كل الترحيب بنيل هذا الشرف الرفيع بزواج ابنتهم من محمد صلى الله عليه وسلم الذي عرفوا عنه كل الكمال في جميع سني حياته . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يفكر في الزواج في زينب ، وهو الذي خطبها لزيد الذي كان يعتبره أبنا له . وكان (عبد الله بن جحش) ، أخو زينب ، قد اعترض على هذا الزواج الغير متكافئ في نظره لكون أخته قرشية هاشمية وابنة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزيد مولى ، اشترته خديجة وأعتقه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد رأى عبد الله أن هذا الزواج سيكون عاراً يلاحق أخته

ونسلها مدى الحياة . وقد كان عاراً عند العرب ، في الجاهلية وفي الإسلام ، أن تتزوج الحرة عبداً أيا كانت مكانته وثروته . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يقض على هذه العادة الجاهلية من نفوس العرب ، وجعل الأخوة إخوة في الإسلام ، وأراد أن يذيب الفوارق العنصرية بين الطبقات وأن يسوي بين الناس أحمرهم وأسودهم . وقد رأى زواج زينب من زيد فرصة لتطبيق ذلك المبدأ .

ولقد امتثلت زينب وأخوها لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولإرادة الله في إتمام ذلك الزواج ، رغماً عن نفسيهما ، وذلك حين نزلت الآية الكريمة تأمر بذلك في قوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) .

وتزوج زيد من زينب ، ودفع لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مهرها عنه ، ولكن زينب لم تتقبل هذا الزواج ، ولم تعط زيداً الفرصة لإقامة حياة زوجية هادئة هانئة ، فصارت تضايقه كثيراً وتمردت عليه ، حتى أثارته ، وشكاها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مرة يشكو فيها زيد يقول له : (أمسك عليك زوجك واتق الله) ، لكن زيداً لم يتحمل استمرار حياته مع زينب على هذا الشكل ، وهي كارهة له ، ولم يتحمل تعاليها عليه فقام بتطليقها .

ولقد أراد الشارع الحكيم أن يبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ، ومن إعطاء المتبني جميع حقوق الابن من الصلب في المثرات وحمة النسب ، فنزل في ذلك قوله تعالى : (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم والله قول الحق ويهدي السبيل) . وأجاز للمدعي أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمن ادعاه ، كما يجوز للمتبني أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمتبنيه . وحين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم

أن يطبق هذا الحكم الألهي فكر في أن يطبقه على نفسه مع زيد ، ولكنه تردد خشية أقوال الناس ، فنزل في ذلك قوله تعالى بعدم التردد في هذا الأمر : (وتخفي ما في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) . ولذلك أقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الزواج من زينب بعد أن طلقها زيد ، ترضيه لها واستجابة لأمر الله تعالى حيث قال : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) . ولم تنجب زينب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاشت بعده حتى توفيت سنة ٢٢ للهجرة ، وكانت أول زوجات النبي صلى الله عليه وسلم لحوقاً به .

وترتبط بالسيدة زينب بنت جحش قصة (المغافير) ، وملخصها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف على زوجاته كل يوم يتفقد أحوالهن جميعاً ، لكن زوجاته لاحظن عليه أنه يطيل البقاء عند زينب ، فدبرت عائشة وحفصة أمراً ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة من عند زينب ودخل على عائشة قالت له : (ماذا أكلت أو شربت عند زينب ؟ إني أشم في فمك ريحاً غير طيب) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سقتني زينب جرعة عسل) فقالت له : (لقد رعا نحله المغافير) ، والمغافير نبات لزج رائحته كريهة . ولما دخل عند حفصة ، قالت له نفس القول ، فحرم على نفسه العسل . وقد كشف الله تعالى هذا التآمر في آيات من (سورة التحريم) بقوله تعالى : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم) .

وعن زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (رملة بنت أبي سفيان) المعروفة بام حبيبة ، فهي ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي مهاجرة في الحبشة ، بعد أن فارقت زوجها (عبيد الله بن جحش) الذي ارتد عن الإسلام ،

ومات على الكفر بالحبشة ، ولما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قصتها ، سرعان ما خطبها لنفسه ليحل مشكلتها ، ثم ليزداد التقارب بينه وبين أبيها أبي سفيان زعيم مكة ، وعسى أن يكرمه الله بالدخول في الإسلام . قال تعالى في ذلك : (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) . ولا شك أن إقدام الرسول صلى الله عليه وسلم على حماية بنت أبي سفيان في غربتها كان له أثر على أبيها الذي بارك هذا الزواج حين سمع به وقال في شأنه : (محمد فحل لا يقدع أنفسه) أي عزيز عظيم يعتمد عليه .

وقد أرسل الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي يخطب منه أم حبيبة ، وحمل الخطاب عمرو بن أمية الضمري ، وجعله وكيلاً له في قبول هذا الزواج . وقد وافقت أم حبيبة أن تصبح من أمهات المؤمنين وقد عوضها الله أسمى عوض عن زوجها الذي مات على الكفر . ولقد توفيت أم حبيبة سنة ٤٤ للهجرة ، في خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان .

وعن زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار) ، من بني المصطلق ، وكانت من سبايا بني المصطلق من خزاعة . وكانت قد أسرت في الحرب وافتداها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اعتقها وتزوجها ، واعتق الرسول أسراهم تكريماً لهذا الزواج ، وأسلمت قبيلتها جميعها بسبب هذا الزواج وهذه المصاهرة الكريمة ، وكانت جويرية أكثر النساء بركة على أهلها ، توفيت سنة ٥٦ للهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان .

وعن زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (صفية بنت حيى بن أخطب) اليهودية ، ابنة سيد بني النضير ، وكانت من سبايا خيبر ، اصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من غنائم يهود بني قريظة ، واعتقها ، وتزوجها بعد أن أسلمت . وصارت صفية من أمهات المؤمنين ، توفيت سنة ٥٠ للهجرة ، ودفنت بالبقيع .

وعن زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ميمونة بنت الحارث بن جبير الهلالية ، وهي آخر من تزوج بها من زوجاته صلى الله عليه وسلم . وكانت ميمونة تسمى قبل زواجها مـــن رسول الله صلى الله عليه وسلم (برة) فأسماها الرسول صلى الله عليه وسلم ميمونة . وأمها هند بنت عوف بنت زهير بن الحارث ، وكانت أكرم النساء أصهاراً فبناتهـــا تـــزوجن مـــن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أبي بكر ومن العباس وحمة وعلى ابن أبي طالب وأخيـــه جعفر . ويقال أن ميمومة ، بعد فتح خيبر ، وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وســـلم وأنهـــا نزلت فيها الآية الكريمة : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يـــستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) . وقد توفيت ميمونة سنة ٦٠ للهجرة .

وأما عن زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (ماريا القبطيـــة) ، أم ولـــده إبـــراهيم ، فكانت جارية أهداها له (المقوقس) حاكم مصر من قبل ملك الروم ، هي وأختها (سيرين) في العام السابع للهجرة ، فاعتقها رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم وأســـلمت وتزوجهـــا ، وتزوجت سيرين من شاعره (حسان بن ثابت) ، وتوفيت ماريا في العـــام الـــسادس عـــشر للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

كذلك قبل أن من أزواجه (ريحانة بنت زيد النضرية) ، وهي من سرارية وإمائه ، وهي من سبي بني قريظة ، اعتقها وتزوجها بعد أن أسلمت ، وتوفيت سنة ١٥ للجرة في خلافة عمـــر بن الخطاب رضي الله عنه .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأتين ولم يدخل بهما ، وهمـــا : (أســـماء بنـــت النعمان الكندية) ، لإصابة وجهها بمرض جلدي (بهاق) ، و(عمرة بنت زيـــد الكلابيـــة) التي استعاذت به من نفسه فأعاذها وفك خطبته لها .

وهكذا ، بحسبة بسيطة ، نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج من أربع زوجات حرائر فتيات صغار السن بعد وفاة زوجته خديجة ، وهي : عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وجويرية بنت الحارث ، وتزوج من ثلاث جواري لا يدخلن في عداد الحرائر ، وهما : صفية اليهودية وماريا القبطية وريحانة اليهودية . أما الباقيات فكن طاعنات في السن فاتهن قطار الزواج . ولا يعاب على الرسل أمر تعدد الزوجات لأن هذه التعدد وقع لأمر ألهي . ولقد عابوا على محمد صلى الله عليه وسلم أنه تزوج من تسع نساء ولم يعيبوا على زواج النبي داود عليه السلام من مائة امرأة ، والنبي سليمان من سبعمائة امرأة وثلاثمائة سرية ، كما ورد في أسفار العهد القديم ! كذلك لم يعيبوا على السيد المسيح أنه لم يتزوج ! وقد قال بعض المستشرقين أن تسع زوجات لمحمد صلى الله عليه وسلم أنه لدليل على فرط الميول الجنسية ، ونقول لهم أن السيد المسيح لا يوصف بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط .

وهنالك مغالطة شائعة بين كتاب الغرب من مسألة تعدد الزوجات في الإسلام ، فهم يروجون بأن الإسلام هو الذي أباح تعدد الزوجات ، بينما الحقيقة أنه هو الذي حدد عدد الزوجات بأربع كحد أقصى ، وكان العدد قبل الإسلام بلا حدود في جميع الأديان . وها هو الغرب اليوم يطالب بالتعدد بعد أن ساد الطلاق في مجتمعه وانتشرت العلاقات المحرمة .

وبالنسبة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم فقد جعل الله لهن خصائص ليست لغيرهن ، منها فرض الحجاب عليهن ، وهو البقاء في بيوتهن وذلك لما نزل في حقهن في الآية رقم ٣ من سورة الأحزاب بقوله تعالى : (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) ، وألا يتزوجن من بعده (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) (الأحزاب : الآية ٥٣) . وقد حرم الله عليه أن يبدلهن أو يطلقهن ، وجعلهن أمهات المؤمنين : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) (الأحزاب : ٦) .

والحقيقة أن مثل هذه القضايا التي أثارتها تلك الروايات ، يجب علينا أن ندرسها دراسة جيدة وأن لا نتقبل أحكام الكتاب المغرضين فيها على علاقتها وأن لا ننساق وراء أفكارهم الهدامة بحجة حرية الرأي وحرية التفكير ، لأن هذه السيرة النبوية الطاهرة العطرة من أهم كنوز الإسلام والمسلمين ، وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم . فحياة محمد صلى الله عليه وسلم وسلوكه وأقواله وأفعاله هي السنة النبوية المطهرة التي تعد هي وكلام الله المنزل أساس تشريع الإسلام ، فيجب علينا أن ندافع عن هذه السيرة وأن نعدد كل ما جاء فيها استشهاداً بما جاء في كتاب الله المحكم ، وأن نستأصل منها كل ما يلقي أي ظلال شائبة غير صحيحة على حياة أشرف الخلق جميعاً ، صاحب هذه السيرة العظيمة . وإنني حين أقترح ذلك إنما اجتهد برأيي من منطلق الغيرة على هذه السيرة المشرفة والحب لهذا العظيم صاحب السيرة الذي أوتى جوامع الكلم وانسابت هدايته من ينبوع جياش حافل بالخير ، عامر بالبركات .

ومحمد صلى الله عليه وسلم في نفسه عظيم بالغ العظمة وفقاً لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بني الإنسان في عصور الحضارة ، ومكانة عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ، في التاريخ أن التاريخ كله ، بعد محمد ، متصل به ، مرهون بعمله ، وأن حدثاً واحداً من أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد صلى الله عليه وسلم وظهور عمله . لقد كان التاريخ شيئا قبل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم صار شيئاً آخر مختلفا عما كان عليه بعدها ، إن ظهور محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه وفتوحه وقوته وعظمته قوة إيمان خالص برسالته . لقد سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنبياء ورسل للشعوب التي أرسلوا إليها ، وكانت رسالاتهم محلية ، أما رسالة نبي آخر الزمان فهي رسالة عالمية . ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الشخصية التاريخية الوحيدة التي وضحت كل معالمها ، والتي

سجل معاصروها أقوالها وأفعالها فلم يتركوا شاردة ولا واردة إلا أحصوها ، فهو النبي الوحيد الذي يمكن أن يسمى شخصية تاريخية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني . إن سيرته عليه الصلاة والسلام معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى ، وسجل حياته ناصع البياض ، كامل غير منقوص ، وهو النبي الوحيد الذي مارس بالفعل كل المبادئ التي كان يلقنها للناس . ولن تجد في القرآن حكماً أو أمراً لم يعمل به النبي محمد صلى الله عليه وسلم . وقد تقلبت حياة محمد صلى الله عليه وسلم منذ أن ولد يتيماً إلى أن صار مؤسسا لدولة كبرى وراعياً لأمة أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس .

وكان عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى للقدوة الكاملة ، وهو طفل وشاب وشيخ ووالد وصديق وزوج ورفيق وجندي وقائد ومعلم وقاضي ومهاجر ، كان في كل هذه المراتب على اختلافها هو لم يتغير من البداية إلى النهاية . وكان مثال الإنسان الكامل ، ثابتاً على العهد لم يتغير طبعه ولا اختلفت معاملته لغيره ولا تغير أسلوب حياته وطريقة معيشته ، فالرخاء أظهر سخاءه وعفوه وشجاعته ومروءته وشهامته ، والشدة أظهرت صبره وجلده وقوة إيمانه وعظمة ثقته بربه .

ولقد كتب الكاتب الإنجليزي العظيم (توماس كارليل) كتابه (الأبطال) ، وعقد فيه فصل كاملاً عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وجعله أول هؤلاء الأبطال العشرين الذين تضمنهم كتابه ، ونموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم وتساؤلنا ، على رأي المرحوم الأستاذ عباس العقاد ، صاحب العبرقيات ، ما بلانا نقتنع بتمجيد (كارليل) للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ولا يعرف الإسلام كما نعرفه ولا يدين به ، لماذا لا نكتب نحن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقراء العربية كتاباً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على النمط الحديث ، كما كتب كتاب السيرة الأفاضل من قبل ؟ .

لذلك فقد كتبت كتابي هذا ، وأنا استحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يلغط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية .

فمحمد صلى الله عليه وسلم قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس ، وهو عظيم لأنه على خلق عظيم ، وإيفاء العظيم حقه لازم في كل أوان وزمان ، لأن العالم اليوم أحوج مما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم ولشعوب العالم كافة .

وإن التقدير لمحمد صلى الله عليه وسلم لنافع لمن يقدرونه ، وليس بنافع لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يقدروه وهو ليس بمحتاج إلى تقدير رب العالمين له ورفع قدره ووصفه بأنه صاحب الخلق العظيم . لقد نقل محمد صلى الله عليه وسلم الناس من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الله الواحد الديان ، ونقل العالم من ركود إلى حركة ومن فوضى إلى نظام ، وإلى نور بعد ظلام ، وإلى هدى بعد ضلا ، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية ، لم يسبقه في ذلك أحد من أصحاب الدعوات ولم ولن يلحق به أحد منهم . وسبحان من أبدع محمداً صلى الله عليه وسلم النبي المختار ، إنه الإنسان الكامل الذي صان الإيمان مادة ومعنى ، وعاش به سيرة ودعوة ، وأقام على دعائمه أمة ودولة وأنشأ باسمه حضارة ومجداً ، فصلوات الله وسلامه عليك يا أشرف المرسلين ويا خير خلق الله أجمعين .

٨- الرد على مناوئي محمد صلى الله عليه وسلم والمشككين في دعوته والتصدى لمحاولة النيل من مكانته

أشاع الكتاب البيزنطيون والأوربيين في العصور الوسطى قذائف افتراء مفرط خلال اثنى عشر قرناً بصدد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، وأيدهم في ذلك رجال الدين المسيحيون في البدان الخاضعة لحكم دولة الإسلام : (يوحنا الدمشقي) ، و(تيودور أبو قره) ، و(إيليا مطران نصيبين) ، و(عبد المسيح الكندي) ، وتبعهم في ذلك رهبان أوربا بداية

من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وحتى يومنا هذا بما صرح بـه البابـا بنديكت السادس عشر بابا الكنيسة الكاثوليكية في روما . ولقد صيغت هـذه الإشـاعات فـي روايات كاذبة وأخطاء مدلسة تظهر الجهل الواضح لقائليها بأحداث التاريخ وحقائقه واعتقادهم السيئ الخادع . وكان من ثمار هذه الدعاية المضللة التي دأبوا على إطلاقها خلال ثلاثة قرون ما عرف في أوربا نفسها باسم (أسطورة محمد في الغرب) ، تلك الأسطورة التي أشـاعت في أوربا الكذب الباطل والافتراء الخسيس طيلة عشرة قرون .

ويتضح لنا من الكتابات التي وردت في هذه الأسطورة ما جال في عقول الأوربيـين خـلال القرون عن كل ما يتصل بنبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام من جهل فظيـع وعـداوة صريحة وأحكام عتيقة متأصلة من تحزبهم الجاهل المسبق لسيرة الذات الشريفة التي خاضوا فيها . ولا يقتصر هذا الجهل بسيرة سيد الخلق على البسطاء من الأوربيين والشريرين منهم ، بل ينطبق أيضاً على كبار علمائهم من فلاسفة ورجال دين ومفكرين ، إذ لم يكن لدى أي منهم رغبة أو تطلع في أن تتوفر له المعرفة الحقة والموضوعية الصحيحة عـن الإسـلام وعـن مؤسسه . ولم يخاطر (البرت الكبير) ولا (توماس الأكويني) ، أو (روجر بيكـون) فـي القرن الثالث عشر الميلادي ، ولا (فرانسيس بيكون) ، و(دسـكارتيز) ، و(باسـكال) ، و(سبينوزا) ، أو (مالكبرانش) في القرن السابع عشر ، لم يحاول أي منهم ، على الإطلاق ، بذل أي جهد لفهم الإسلام ، رغم معرفتهم بقدر كبير من المعلومات عن الإسـلام ومحمـد صلى الله عليه وسلم من العلماء والفلاسفة .

لقد صور كتاب العصور الوسطى الغربيون محمداً صلى الله عليه وسلم مرة ساحراً ، ومـرة قاطع طريق وسارق غبل ، ومرة فاجراً شنيعاً ، ومرة أخرى (كاردينالا) لم ينجح فـي أن يصبح (بابا) فاخترع دينا جديداً ، كي ينتقم من البابوية وكنيستها . وصارت سيرة محمـد

صلى الله عليه وسلم عندهم رمزاً لكل الجرائم الغير معقولة والشنيعة ، إلى الدرجة التي صار تاريخه فيها ، كما قال (بيليت) Pilate ، موضوع حكايات شنيعة وفساد كبير .

ولم يشر مؤرخو القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم بعدالة أكثر ، ولم يجسر كل من (ببليندر) Bibliander ، و(هوتينجر) Hottinger ، و(مرعشي) Marracci أيضاً أن يدرسوا السيرة النبوية دراسة صحيحة لتصحيح تلك المفاهيم القديمة ، بل ساروا على نهجها ومنوالها .

وتنسب (أسطورة محمد في الغرب) إلى دراسة جاءت بهذا العنوان نشرها (الإسكندر الأنكوني) في القرن التاسع الميلادي في (المجلة الإيطالية)

Giornale Storico della letteratura italiana (volume XIII, ١٨٨٩, pp. ١٩٩-٢٨١)

واستمرت رائجة في أوربا حتى القرن الرابع عشر .

ولقد بدأ الأنكوني دراسته بذكر ما أورده المؤرخ البيزنطي (ثيوفان) Théophane (٧٥١ – ٨١٨ م) ، في تاريخه (Chronographia) ، حيث أورد فيه أن محمداً صلى الله عليه وسلم قتله عشرة من اليهود ، بعد أن صدقوه بأنه المسيح ، لكنهم انقلبوا عليه لأنهم رأوه يأكل لحم البعير . ويتابع ثيوفان قوله عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم بأنه كان قد ذهب إلى فلسطين ، وهناك تحاور مع النصارى واليهود وأخذ عنهم محتويات كتبهما المقدسة .

وعلى نهج ثيوفان سار الأخباري (أنستاس) ، و(قنسطنطين بورفيروجينتيا) ، و(سدرينو) ، و(زونارا) ، وغيرهم ، ولكنهم لم يذكروا العشرة يهود المسئولين عن قتل محمد صلى الله عليه وسلم .

وتأخذ الأسطورة اتجاهاً آخر عند (جيـوبيرت) Guibert ، رئـيس ديـر (نوجينـت) ، بأسطورة جديدة مؤداها أن : (بطريرك الإسكندرية حين مات أراد راهب مـن الرهبـان أن يخلفه في منصبه ولكنه طرد من البطريركية ، وحتى ينتقم لنفـسه أعلـن أن (المـسيح) ، وتزوج من أرملة غنية تدعي (خديجة) ، كان الراهب قد أوهمها من أنها ستتزوج من نبي . ولقد أشاع هذا الراهب نفسه الذي سمى نفسه (ماثوموس) بأنه نبي . ولقد أم بتجميع العامـة حوله . وقام ماثوموس بإحضار بقرة ووضع بين قرنيها كتاباً صغيراً ، وفـي أحـد الأيـام خرجت البقرة من خبئها أمام العامة ، فرأوا الكتاب الذي تحمله ، ووجدوا فيه عبارات تحلـل كل أشكال الفساد الأخلاقي ، وقد شاعت أفكار هذا الكتاب في أفريقيا ومصر والحبشة وحتـى في أسبانيا) .

ومما يظهر لنا بوضوح ، نرى أن هذه الأسطورة الجديدة أسست بناءاً على واقعتـين : ذكـر الراهب (بحيري) في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر سورة البقـرة فـي القـرآن الكريم ، ومن خلال هاتين الواقعتين بني خيال الكتاب المسيحيين الفاسد في أوربـا العـصور الوسطى هذه الأسطورة المتطرفة والحمقاء .

ومن الدور المنسوب لبحيري الراهب المزعوم ، استنتج مسيحيو العصور الوسطى أن الإسلام (هرطقة) مسيحية ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم خارج منفصل عن حـضن الكنيـسة المسيحية . وحتى يتدعم هذا الزعم وينتشر ، اخترع (بيير دي كلوني) Pierre de Cluny قصة تدور حول بحيري زاعماً أن اسمه الحقيقي (سيرجيوس) ، وأنه كان ضـمن جماعة الهراطقة (النسطوريين) ، وأنه طرد من الكنيسة لهرطقته ، فلما طرد ذهـب إلـى جزيرة العرب ، وهناك التقى بمحمد صلى الله عليه وسلم ولقنه بكل ما كان ينقصه من تعاليم

كتابي العهد القديم والعهد الجديد على ضنوء المذهب النسطوري الـذي لا يعتـرف بألوهيـة المسيح ، وأضاف لهذه التعاليم أيضاً بعض الخرافات المستخرجة من الأناجيل المزيفة .

ولقد سلك (جاك دي فتري) Jacques de Vitry (ت ١٢٤٤ م) نفس السبيل الذي سـلكه دي كلوني ، في ادعائه بأن سيرجيوس هو بحيري ، الذي كان يدعي (سوسـيو) Sosio ، هو الذي حرض محمداً صلى الله عليه وسلم على ادعاء النبوة ، وهو الذي زوده بتعاليم كتابي العهد القديم والجديد وأنه أضاف إليها ما أوحى به الشيطان إليه .

وتابع (مارتن بولونكو) Martin Polonco (ت ١٢٧٤ م) قول دي كلـوني وجـاك دي فتري بأن محمداً صلى الله عليه وسلم تثقف على يد الراهب سيرجيوس ، وأنه فرض تشريعه بحد السيف ، وأضاف عنهما بأنه كان (مجوسياً) .

ويمثل (فانسان دي بوفيه) Vincent de Beauvais (١١٩٠ – ١٢٦٤ م) ذروة الكتاب المسيحيين في العصور الوسطى ، الذين لم يرجعوا على الإطلاق في سيرة محمد صـلى الله عليه وسلم إلى المصادر العربية التي تناولت هذه السيرة العطرة ، ويحذو في قوله نفس حذو سابقيه في الكلام عن بحيري وعلاقته بمحمد صلى الله عليه وسلم وفي التعريف بالقرآن مـن أنه تعاليم وأساطير وأكاذيب جمعت من كتابي العهد القديم والجديد .

وكان (وليم الطرابلسي) أو من استعان في سرد سيرة محمد صلى الله عليه وسلم بالمصادر العربية ، في كتابه Tractacus عن بحيري الراهب ، وانتهاؤه بالتأكيد على أن الإسلام هـو مسيحية مجددة أخذها محمد صلى الله عليه وسلم من بحيري .

وقد سار (بيير باسكاسيو) Pier Pascasio (١٢٢٨ – ١٣٠٠ م) على نفس درب ولـيم الطرابلسي في استقاء مادة كتابه عن محمد صلى الله عليه وسلم من المصادر العربية ، وقـد

قام بتأليف رواية عن محمد صلى الله عليه وسلم تستند وقائعها على خرافات سالفة كـان قـد لفقها الكتاب الأوربيون قبله عن علاقته ببحيري الراهب .

ومنذ مطلع القرن الثامن عشر اهتمت (أسطورة محمد في الغرب) بتوصيف الشماس بحيري (سيرجيوس) ، بأنه شماس ذهب إلى روما ليحرز فيها مكانة دينية رفيعة ، إلا أنه بـسبب وقوع خلاف بينه وبين البابا طرد من روما ، وبسبب ذلك انشق عن الكنيسة واتخذ له ديناً جديداً أسماه (الإسلام) ، وبعد ذلك جعلت الأسطورة محمداً هو الشماس ولـيس بحيـري ، وسمى محمد أيضاً (بنيقولا) . ونقرأ في كتاب (نيقولا) Liber Nycolay ، (أن نيقولا ، الذي يقال له محمد ، كان واحداً من سبعة شماسين كرادلة للكنيسة الرومانية) .

وفي القرن السابع عشر ألف (فرانسيس بيكون) ١٥٦١ – ١٦٢٦ م ، أكذوبة كبرى وروجها عن محمد صلى الله عليه وسلم تحت عنوان (الدجال) ، كـذلك أنكـر الكاتـب الـشهير (هيجودي جرووت) حقيقة الإسلام كدين وقام برفضه في بحث له بعنـوان (قـوام الحـرب والسلام) وميز في بحثه الدين المسيحي عن دين الإسلام ، وأشاع أكاذيب كبرى عن الإسلام كانت عاملاً من عوامل تحريك القلوب في أوربا ضد الإسلام . ولقد كان هيجو هذا ، بـرغم شهرته في أوربا ، غبياً أشد الغباء لأنه هاجم الإسلام ونبي الإسلام وهو لا يعرف شيئاً عنهما .

وجاءت الإهانة للإسلام ونبي الإسلام في منتصف هذا القرن على يد (جوهـان هـوتينجر) Johann Hottinger (١٦٢٠ – ١٦٦٧ م) ، في كتابه (تاريخ الشرق) الذي يذكر فيـه كل ما ذكره سابقوه وما أشاعوه من إشاعات كاذبة وإهانات للإسلام ولنبي الإسلام . وسـار على نهج هوتينجر الكاتب (همفري بريدو) H. Prideaux في كتابه : (حياة محمد الدجال) ، الذي وضعه بهدف أساسي ، وهو محاربة الإسلام ، وقد أفاض فيه بالأساطير والخرافات

الكثيرة السابقة التي وردت في المصادر المغرضة بصدد حياة نبي الإسلام صـــلى الله عليـــه وسلم .

ولقد كان (أدريان ريلان) ، أو كاتب أوربي تحري العدالة في حياة محمد صـــلى الله عليـــه وسلم مع مطلع القرن الثامن عشر الميلادي (١٦٧٦ – ١٧١٨ م) ، فـــي كتابـــه (الـــدين الإسلامي) De Religione Muhamedia ، وقد قصد ريلان ، في كتابه هـــذا ، تـــصحيح التناقضات والوشايات والمزاعم التي تفوه بها الكتاب الأوربيون في العصور الوسطى حـــول موضوع محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن والإسلام ، وانتصار الحقيقة للدين الحق . كذلك فإن كتاب ريلان به الكثير من الحقائق والثوابت التي تساعد في تنـــوير الأوربـــين بـــصدد موضوع الإسلام .

وفي القرن الثامن عشر أساء (والترسكوت) ١٧٧١ – ١٨٣٢ م ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إساءات بالغة في رواية (الطلسم) ، التي أصدرها عـــام ١٨٢٥ م . وأســـاء (فولتير) الذي يسمى بأديب الثورة الفرنسية (١٦٩٤ – ١٧٧٨ م) ، للرسول صلى الله عليه وسلم في مسرحيته التي جعلها بعنوان (محمد) سنة ١٧٤٢ م ، عندما صور الرسول صلى الله عليه وسلم ، على خلاف حقيقته ، بأنه (رجل وحشي وفظ ، وعديم الضمير ، مجرد من المبادئ الأخلاقية ، وأن رسالته رسالة رجل أفاك محتال ودجال اعتمد على السيف في إنشاء دولة له ولأتباعه بدأت في المدينة) . وقد أهدى فولتير مسرحيته إلى (بابا رومـــا) حتـــى ترضى عنه المسيحية العالمية .

كذلك أساء كل من (لامانس) في كتاباته التي تفوح بغضاً للإسلام ولنبيـــه وتمتلـــئ حقـــداً وكراهية ، المؤرخ اليهودي (جواتياين) ، الذي نسب رسالة الإسلام إلـــى أحبـــار اليهـــود

وكهانهم . كما أساء إلى الرسول أيضاً المؤرخ الفرنسي الـشيوعي (رودينـسون) ، الـذي ازدادت افتراءاته على الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابه بعنوان (محمد) .

فلا غرابة أن يتلفظ هؤلاء الكفار المشركون والأشرار الملحدون بمثل ما تلفظوا به وأن يتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام بمثل ما اتهموهما به لأنهم كفره بالدين ملاحـدة ، لا ينتمون إلى حظيرة الإسلام وزمرة المسلمين ، وقولهم معروف من أنه نابع من مستنقع العداوة والبغضاء وبالوعات الحقد الذي يغلي في صدورهم ضد الإسلام وضد نبي الإسلام . ولكـن الغريب حقا أن يصدر مثل هذا القول ، وبقدر كبير من البذاءة والوقاحة ، من رجل يدعي بأنه مسلم ، أو أنه ينتسب إلى الإسلام ، مدعياً أنه يريد بما كتب أن يصحح مفاهيم الإسلام . رجل ليس له من الإسلام إلا الاسم ، اسمه (سلمان رشدي) ، ولد بالهند وسط أسرة مسلمة وتربى في مدارس بريطانيا وفي جامعة (كمبردج) ، التي قام معسكر التنصير الحاقد على الإسـلام ببرمجته بكل ما يريد أن يدسه على الإسلام وعلى نبي الإسلام . رجل تتلمذ على يد الشيطان فصار من شياطين الإنس وأخرج كتاباً وضيعاً تحـت اسـم : (آيـات شـيطانية) Satan Verses . وقد ألف ، ذلك الفاقد للرشد ، كتابه ، وقد هدف من كتابته وهدف من تضافر معه وقام بتحريضه وتمويله من عتاة الصليبيين المحدثين تطعيم الأجيال الغربية والمتحدثين بلغات الغرب ضد الإسلام ، ووضع شائعات فياه تحاط برموز الإسلام إلا وشككت فيه وجرحتـه . ولا نغالي إذا قلنا بأن هذا الكتاب يعد من أقذر الكتب التي ظهرت في مجـال الهجـوم علـى الإسلام ومن أكثرها وقاحة في هذا القرن كله .

والكتاب في مجموعة ليس ذي أهمية ولا يستحق الرد عليه لأن ما جاء به ليس بجديد بل هو افتراء وبهتان قديم أخرسته وألجمته أقلام المنصفين للإسلام ولنبي الإسلام صـلى الله عليـه وسلم من الكتاب الأمناء المسلمين وغير المسلمين . ولكن خطر مثل هذا الكتاب يتمثـل فـي

الخوف من تأثيره على قطاعات القراء المواجه إليهم من الغربيين والمسلمين المغتربين في شتى آفاق الأرض على اختلاف أوطانهم الأصلية ، والمسلمين الهنود بصفة خاصة ، الذين ينتمي إليهم هذا الكاتب والذي تعتبر اللغة الإنجليزية لغة القراءة الأساسية عندهم . ولقد ضاعف من تأثير هذا الكتاب وخطره عاملان هامان ، أولهما : أن كاتبه للأسف مسلم ويدعي الانتماء للإسلام ، مما يجعل هجومه على الإسلام ونبي الإسلام يبدو من قبيل النقد للذات ويدخل تحت باب (وشهد شاهد من أهلها) . والثاني : هو الرواج الشديد للكتاب والدعاية الإعلامية الواسعة والضجة المفتعلة التي صاحبت إصداره . كذلك رد الفعل العنيف في الإعلام الغربي بعد صدور حكم على مؤلفه بإهدار دمه ، واتهام المسلمين بالإرهاب ومحاربة حرية الرأي والحجر على حرية التعبير والتفكير . ولنا أن نسأل هؤلاء المتباكين على حرية الرأي والتفكير هل يرضون بأن يخرج عليهم كاتب بني جلدتهم يهاجم المسيح أو المسيحية ؟ هل ترض كنائس الشرق والغرب بذلك ، وهل سيتباكى الصليبيون آنذاك على حرية ، الرأي والتفكير ؟ بالقطع فإنهم لن يرضوا بذلك ولكن مع الإسلام فلا بأس .

وآخر وأحدث هجوم وقع على الإسلام ونبي الإسلام جاء يوم ١٣ سبتمبر من العام الماضي في الخطبة التي ألقاها الباب (بنديكت السادس عشر) باب روما ، في درس على طلاب اللاهوت الألمان في جامعة (راتسبون) الألمانية) ، وتعرض خلالها بالطعن العلني في عقائد مليار ونصف مليار مسلم حين ردد قول الإمبراطور (مانويل كومنين الثاني) في القرن الرابع عشر الميلادي ، في حواره مع مثقف فارسي مسلم كان في زيارة للقسطنطينية حين قال : (أن محمداً لم يأت إلا بكل ما هو شيء وشر وغير إنساني بسبب حضه على نشر الإسلام بالعنف وبحد السيف) . وهو بذلك يقبل وؤمن بما قاله هذا الإمبراطور الجاهل ، وبالتالي فهو يدخل في باب الفتوى الدينية المحرضة ضد الإسلام والمعادية للمسلمين والمولدة

للعنف الدامي والمؤيدة لمقولة الحرب الشاملة ضد (الإسلاموفاشيزم) التي يرددها رئيس أمريكا وحواريوه فيشعران الدنيا عنفاً وإرهاباً .

وبرغم أننا لا نحبذ التورط في هذه الدعاوي والفتاوي المحرضة على الحروب الدينية فإننا نعرف أن كل الأديان قد خاضت حروباً دامية دفاعاً عن مبادئها أو نشراً لدعاواها ، ولعل بابا الفاتيكان يعرف أن الكنيسة البابابوية التي يجلس الآن على كرسيها هي التي أفتت وحرضت دينيا على شن الحروب الصليبية في العصور الوسطى ضد العرب والمسلمين بحجة مسيحية وتحت راية الصليب بينما الهدف كان استعمارياً توسيعياً . وهو الأمر الذي رافقه قتل مئات الآلاف من المسلمين والمسيحين العرب الذين اصطفوا للدفاع عن أوطانهم ومعتقداتهم . وهي الكنيسة الكاثوليكية نفسها التي أفتت وشجعت على رفض المسيحية الكاثوليكية بحد السيف على أهالي أمريكا الجنوبية بقتل مئات الآلاف من سكانها الأصليين من الهنود الحمر . وهي الكنيسة نفسها التي أقامت (محاكم التفتيش) في بلاد الأندلس الإسلامية بالتحالف مع نبلاء الإقطاع في أوربا في العصور الوسطى فراح ضحيتها مئات الآلاف ممن ثبتوا على إسلامهم من أهل الأندلس ورحل الآلاف من المسلمين واليهود وأحرقت ودمرت التراث الإسلامي الخالد الذي خلفته الحضارة الإسلامية هناك مدة ثمانية قرون . فليسأل البابا نفسه وضميره ويقرأ التاريخ ليرى من الذي أتى بالسوء والشر واللاإنسانية ونشر دينه بالعنف وبحد السيف ؟ إن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء رحمة للبشرية جمعاء وزوده ربه بمكارم الأخلاق وبالسماحة والعدالة جاء لكل الآفاق ، ولقد امتدحه الرحمن الرحيم بالقول له : (وإنك لعلي خلق عظيم) وصدق الله العظيم .

ويكفي لإظهار مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، أنه جاءهم بالإسلام ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وليضمن لهم العيش السعيد في الدنيا والجنة

والنجاة من النار في الآخرة . ولقد قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاوي الشرك التي سقط البشر في مستنقعها ، وجاهد وتحمل وصبر كل ما تعرض له من جفاء ومعاناة وإساءة وأضرار من أجل الهدف السامي الذي بعث من أجله ، وهو أن يأخذ بيد كل البشر إلى كل ما هو خير وفلاح في الحياة الدنيوية وفي يوم الحساب . كان هو القلب الكبير الذي حمل لكل البشر الحب الكثير ، وكان الداعي إلى الله والبشير والنذير والسراج المنير صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين .

خاتمة :

لم تكن مهمة الرسل والأنبياء مقصورة على تبليغ شرائع الله ، بل كانت مهمتهم كذلك أن يكونوا أمثلة عملية في تنفيذها وتطبيقها على أنفسهم وأن يكونوا قدوة للناس في حشد القوى الإنسانية لإقامة الحق وفي مجاهدة الشيطان أن ينحدر بإنسانيتهم إلى درك الحيوانية الهابط . ومن أجل ذلك جعل الله الرسل والأنبياء بشراً لا ملائكة ، فيهم من الغرائز والمواهب ما في سائر الناس ، ولكنهم كانوا حكماء في استخدامها فلم يقتلوا غرائزهم ولم يميتوا شهواتهم بل حكموا فيها عقولهم وضمائرهم فضبطوها وسيطروا عليها وساروا بها على وفق ما أراد الله منها ونهجوا بها المنهج الذي بلغ بهم غاية الكمال الروحي ، كما به غاية الكمال الجسماني فوضعوا أنفسهم بذلك في المنزلة الكريمة بما أوتوا من الحكمة خير النماذج للإنسانية الكاملة .

ولقد كان الرسل والأنبياء مثلاً عليا للجنس البشري ، ونماذج كاملة في كل زمان ومكان أرسلوا فيه ، وكانت مهمتهم أن يعلموا الناس ، بأقوالهم وأفعالهم ، كيف يستفيدون بما

وهبهم الله من القوى في إسعاد خلقه ، وكيفي يغالبون قوى الشر التي تريــد أن تفــسد الحياة على الأرض .

وقد كان الأنبياء مثلاً عليا وقدوة حسنة لمن جاء بعدهم لو عرف تاريخ حيــاتهم علــى الوجه الأكمل ، وأتيحت لهم كافة الفرص لإظهار الفضائل التي كانوا يتحلــون بهــا . ولكن أصحاب السابقين من الأنبياء لم يسجلوا إلا القليل من أقوالهم وعن مسيرة حياتهم . كما أن الزمن ذهب بآثار الكثيرين منهم ، فلم تبق لأحد منهم صورة كاملة من سجل حياته ولا شخصيته واضحة المعالم يمكن الاقتداء بها والسير على هداها .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فهو الشخصية التاريخية الوحيدة التــي وضــحت كــل معالمها ، والتي سجل معاصروها كل أقوالها وأفعالها فلم يتركوا منها شاردة ولا واردة إلا أحصوها . فهو النبي الوحيد الذي يمكن أن يسمى شخصية تاريخية بكل ما تحمــل هذه الكلمة من معان ، إذ أن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله إلــى جواره وسجل حياته كامل غير منقوص ، وسنته من قول وفعل وسلوك وتــدبير يــتمم بعضها بعضاً .

وقد تقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن كان يتيماً إلى أن صار رئيس دولة وداعي دين وراعي أمة في جميع مراحــل الحيــاة فمــارس صروفها ووفى بحقوق المراتب كلها ، وبذلك صار المثل الأعلى للقــدوة الكاملة . فقد كان طفلاً وشاباً وشيخاً ووالداً وأخاً وزوجاً وجاراً ورفيقــاً وصاحباً وجندياً وقائداً وفاتحاً ومهاجراً وقاضياً وقبل كل شيء كان إنساناً

. وكان في كل هذه المراتب على اختلافها هو هو لم يتغير من الألف إلى الياء ، وكان مثال (الإنسان الكامل) ، ثابتاً على العهد لم يتغير طبعه ولم تتبدل خلقه ولا اختلفت معاملته مع الناس ولا تغير أسلوب معيشته . فإذا كان الرخاء قد أظهر منه السخاء والعفو والشهامة والمروءة فإن الشدة قد أظهرت منه الصبر على النائبات والثبات عند الشدائد والملمات والثقة في ربه خالق الأرض والسماوات . لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وآخر المرسلين ، أرسله الله تعالى رب العالمين هدى ونوراً ورحمة للناس أجمعين ، فعليه منا السلام إلى يوم الدين .

وصلى الله وسلم عليك أيها النبي الأمين

وعلى آلك وأصحابك الطيبين الطاهرين

وأن الحمد لله رب العالمين

تم بحمد الله

مصادر ومراجع البحث

أ – المصادر والمراجع العربية :

- القرآن الكريم .
- كتب الصحاح : صحيح البخاري ، صحيح مسلم .
- كتب السنن : ابن ماجة ، أبي داود ، الترمذي ، والنسائي .
- كتب الأسانيد : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، موطأ الإمام مالك .
- ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة .
- ابن تيمية : السياسية الشرعية .
- ابن سعد : الطبقات الكبرى .
- ابن سيد الناس : عيون الأثر في السير .
- ابن شبه : أخبار المدينة .
- ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .
- ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد .
- ابن كثير : السيرة النبوية .
- ابن هشام : السيرة النبوية .
- الأزرقي : أخبار مكة .
- رفاعة الطهطاوي : نهاية الإعجاز بأخبار ساكن الحجاز .
- السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى .
- السهيلي : الروض الأنف .

- الطبري : تاريخ الرسل والملوك .
- الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن .
- عباس العقاد : عبقرية محمد .
- عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء .
- عطية القوصي : محمد النبي المصطفى .
- محمد جاد المولى : محمد المثل الكامل .
- محمد رشيد رضا .
- محمد عبد الوهاب : سيرة الرسول .
- محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، السيرة .
- الواقدي : المغازي .

ب- المراجع الأجنبية :

- Andrae, T. “Mohammed, The Man and his Faith”, London, ١٩٣٦.
- Bachère, R. : “Le Probleme de Mahomet” , Paris ١٩٥٢.
- Buhl, F : “Mahammad in the Encyclopeadia of Islam” , v.III, Leiden ١٩٣٦.
- Charles, J : “Mahomet, Israêl et Le Christ, Paris. ١٩٥٦.
- Demengham. E : “La Vie de Mahomet” , Paris ١٩٥٠.
- Demon bynes, G : “Mahomet” , Paris ١٩٦٩.
- Goitein, S. : “Studies in Islamic History and Inistitutions, New York. ١٩٦٧.

- Rodin son, M : “Mohammed”, td. By : Anne Carter. New York ١٩٧٤.
- Watt, M : “Mohammad at Mecca” , Oxford ١٩٥٣.
- Watt, M : “Mohammad at Medina” , Oxford ١٩٥٣.
- Watt, M : “Mohammad Prophet and State man, Oxford” , ١٩٦١.